



كلود ليقي شتراوس

علي مولا

من قريب ومن بعيد

(الدوائر الباردة)

حوارات مع: ديديه إريبون

ترجمة: مازن م. حمدان



للمزيد من زاد المعرفة وكتب الفكر العالمي

اضغط (انقر) على الرابط التالي

www.alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الإسكندرية

١١٤٧٢٥

من قريب ومن بعيد

الدوائر الباردة

العنوان الأصلي للكتاب:

Claude LÉVI-STRAUSS

DE PRÈS ET DE LOIN

**Entretiens
avec**

Didier Eribon

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية

في السفارة الفرنسية في سورية

Livre publié

En collaboration avec

Le Ministère français des Affaires Etrangères

Et les Services Culturels

de l'Ambassade de France en Syrie

كلود ليقي شتراوس

من قريب ومن بعيد الدوائر الباردة

حوار أجراه ديديه إريبون

ترجمة : مازن م . حمدان

من قريب ومن بعيد الدوائر الباردة

حوار مع كلود ليفي - شتراوس

إجراه ديديه إريبون

ترجمة : هازن م . حمدان

حقوق النشر محفوظة

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق - ص.ب. 443 هاتف 2134433

الطبعة الأولى: 2000 / 3000

التنقيط : دار كنعان (دمشق)

إخراج: لبنى حمد

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

الإهداء :

إلى محمد حمدان

رغم أنك أبي ...

م.م. حمدان

مَهَيِّدٌ

د. ل. ش: هل احتفظت بيوميات، بمفكرات، بـ «أوراق طريق» كالتي نجدنها في «المدارات الحزينة»⁽¹⁾؟

ك. ل. ش: في البعثة، بالتأكيد. كنت أسجل ملاحظات كثيرة. ويوجد في «المدارات الحزينة» عدة مقاطع منسوخة عنها بدقة شديدة.

د. ل. ش: لكنك لم تكتب مذكرات بالمعنى الدقيق للكلمة على طريقة مالمينوفسكي(*) في «يوميات إثنوغرافي»⁽²⁾؟

ك. ل. ش: لم أكن أعلق أهمية كبيرة على حالاتي النفسية!

د. ل. ش: أطرح عليك هذا السؤال، لأنك تؤكد في «المدارات الحزينة» أنك لا تملك أية ذاكرة ...

ك. ل. ش: أملك ذاكرة مخزية، تدمر ذاتها. إنني أحذف تدريجياً عناصر حياتي الشخصية والمهنية. ولا أتوصل فيما بعد إلى إعادة بناء الأحداث.

(*) مالمينوفسكي: إثنوبولوجي بريطاني من أصل يوناني، هو الممثل الرئيس للإنثروبولوجيا الوظيفية، وهي اتجاه تقف على طرفه المقابل الأنثروبولوجيا البنوية التي تزعمها ليلي - شتراوس. توفي عام 1942 وأشهر مؤلفاته «مغامرو الباسيفيك الغربي» الصادر عام 1922. - المترجم -
(1) تجد الهوامش الأصلية (للمؤلف) في آخر الكتاب.

د. /: ولا ستدراك هذا النقص (إن كنت تعتبر ذلك نقصاً) ...

ك. ل. ش: ... هذا مزعج جداً في الحياة، على أية حال.

د. /: ... ألم تحاول أبداً أن تسجل أفعالك وتحركاتك في

حينها؟

ك. ل. ش: أبداً. وقد يكون ذلك ناتجاً عن نوع من الارتياح
الغريزي حيال ما أفعل وما أكون.

د. /: ارتياح؟

ك. ل. ش: لقد قلت في «المدارات الحزينة» إن إدراكي
نيوليستيكي^(*)، فأنا لا أراكم ولا أستثمر ربحي، لكنني أنتقل على حدود
متحركة دائماً. المهم فقط هو عمل اللحظة. وهو يخبو سريعاً. إنني لا
أمتلك رغبة، كما لا أشعر بالحاجة لحفظ أثر منه.

د. /: قولك إن اللحظة والحدث هما فقط ما يهمك يكاد

ينطوي على مفارقة.

ك. ل. ش: بالنسبة لي، نعم هذا هو المهم. لكنني أستغرق في
الشغل بتكديس بطاقات Fiches: القليل من كل شيء، أفكار سريعة،
ملخصات، قراءات، مراجع، استشهادات... وعندما أريد الشروع بعمل
ما، أقتطف من خزائني رزمة بطاقات، ثم أعيد توزيعها وكأني أقوم
بكشف الطالع. إن هذا النوع من اللعب، الذي تمارس فيه المصادفة
دورها، يساعدني على إعادة بناء ذاكرة متعبة.

^(*) نيوليستيكي: نسبة إلى العصر الحجري الحديث. - المترجم -

الجزء الأول

عندما يعود دون كيشوت

الفصل الأول

من أوفنباخ إلى ماركس

د. ل.: ولدت في بروكسيل عام 1908.

ك. ل. ش.: بالمصادفة. كان أبي رساماً، وكان له أصدقاء في بلجيكا، دبروا له بعض الأعمال هناك. فذهب ليستقر مع زوجته الشابة في بروكسيل، وقد ولدت أثناء ذلك. وبعد شهرين من ولادتي عادا إلى باريس.

د. ل.: كانا يسكنان في باريس؟

ك. ل. ش.: أبي باريس. أما أمي، المولودة في فيردان فقد ترعرعت في بايون.

د. ل.: إذاً، قضيت طفولتك في باريس، في الدائرة السادسة عشرة على ما اعتقد.

ك. ل. ش.: في بناء ما يزال قائماً إلى اليوم، 26 شارع بوسان، قرب باب أوتوي. وعندما أمرُّ به، أعاود رؤية شرفة الشقة التي عشت فيها سنواتي العشرين الأولى.

د. ل. ش: *واليوم، أنت تسكن أيضاً في الدائرة السادسة عشرة. هل*

تحب هذا الحي؟

ك. ل. ش: لقد أحببت هذا الحي في طفولتي لأنه كان يحتفظ بكثير من الإبهار. أذكر أن في نهاية شارع بوسان، عند زاوية شارع لافونتين، كان هناك ما يشبه المزرعة. وكان شارع رينوار نصف ريفي. بالإضافة لذلك كان ثمة مشاغل حرفية، ومتاجر صغيرة للعاديات... أما اليوم، فهو حي يصححني.

د. ل. ش: *كانت عائلتك ميالة جداً إلى الفنون؟*

ك. ل. ش: فيها تأسل حقيقي! أبو جدتي (أم أبي) يدعى إسحاق شتراوس^(*). ولد عام 1808 في شتراسبورغ، ثم صعد، كما يقال، إلى باريس أول شبابه. كان عازف كمان، وقد أسس أوركسترا صغيرة. ولعب دوراً في التعريف بموسيقا بتهوفن وماندلسون وبضعة آخرين. تعاون مع بيرليوز الذي كتب عنه في مذكراته، وأيضاً مع أوفنباخ، الذي كتب له بعضاً من أشهر ربايعياته. وكنا -في العائلة- نحفظ أوفنباخ عن ظهر قلب، لقد هدهد كل طفولتي. غدا شتراوس قائد أوركسترا حفلات البلاط في نهاية حكم لويس فيليب. ثم غدا، في عهد نابليون الثالث، منظماً لكازينو فيشي لمدة طويلة. وفيما بعد، خلّف موزار Mosard على رأس حفلات الأوبرا. وكان في الوقت نفسه شبيهاً بـ Cousin Pons^(**)، شغوفاً بالعاديات ويتاجر بها.

(*) وهو غير الموسيقي الشهير صاحب الدانوب الأزرق. فهذا الأخير يدعى يوهان شتراوس

الثاني. (شتراوس بالألمانية. ستروس بالفرنسية). - المترجم -

(**) القريب بون: رواية شهيرة لبليزاك (من فصول الحياة الباريسية، صدرت عام 1846).

وبون موسيقي لامع يصرف عوائده القليلة في جمع اللوحات والخزفيات ومناشق التبغ ←

د. إ: هل احتفظت عائلتك ببعض منها؟

ك. ل. ش: كان يمتلك مجموعة مهمة من العاديات اليهودية موجودة حالياً في متحف كلوني. وكثير من التحف التي مرت بين يديه اقتناها مجموعة من رعاة الفنون ووهبوها لمتحف اللوفر. وعند وفاته بيع ما تبقى منها، أو توزع بين بناته. وسلب الألمان الباقي أثناء الاحتلال. إنني أحتفظ ببعض البقايا، كالسوار الذي أهده نابليون الثالث لأم جدي ليشكرها على ضيافته في فيلا شتراوس في فيشي. وهذه «الفيللا شتراوس»، حيث أقام الامبراطور، ماتزال موجودة. وقد تحولت إلى حانة أو مطعم لكنها احتفظت باسمها.

د. إ: هل كانت ذاكرة هذا الماضي تنتقل في التقليد العائلي؟

ك. ل. ش: بالتأكيد، فهو يمثل الفترة المجيدة من تاريخ العائلة: لقد كانت قريبة من العرش! كان أبو جدي يتردد على الأميرة ماثيلد. وقد عاشت عائلة أبي في ذكرى الإمبراطورية الثانية. إضافة إلى أن هذه الذكرى بقيت قريبة جداً: فأنا نفسي، عندما كنت طفلاً، رأيت بأم عيني الإمبراطورة أوجيني.

د. إ: قلت لي إن أباك كان رساماً.

ك. ل. ش: نعم، واثان من أعمامي أيضاً، إن جدي، الذي كان في البدء ميسوراً، توفي مفلساً لدرجة أن أحد أبنائه - كان لديه أربعة صبية وفتاة واحدة - اضطر للعمل صغيراً لإعالتهم. وضع أبي في مدرسة الدراسات العليا التجارية. وبدأ، في بداية حياته العملية، يشتغل في البورصة في وظائف متواضعة. وهناك تعرّف على كانويلر

وجميع أنواع التحف. ولم يكن أيّ ممن حوله يتوقع قيمة متحفه هذا. فعاملوه كقريب فقير. لكن ما إن عرفوا قيمة مجموعاته حتى بدؤوا يتآمرون للاستيلاء عليها، مستغلين موته. - المترجم -

وأصبحا صديقين. حالما استطاع، اتجه نحو الرسم الذي شغف به منذ طفولته.

من ناحية ثانية كان أبي وأمي أبناء عمومة. في بايون، تزوجت إحدى خالاتي من رسام كان له حظ من الشهرة، هو هنري كارو - دولفاني، وتزوجت خالة أخرى من رسام أيضاً، هو غابرييل روبي، وهو باسكي عاش بصحة سيئة ومات شاباً وفقيراً.

لا أعرف، هل تعارف أبي وأمي بسبب القرابة أم بسبب العلاقات بين الرسامين. فقد عاشت أمي، قبل زواجها، عند آل كارو - دولفاني، في باريس وكانت تتعلم الاختزال على الآلة الكاتبة كي تصبح سكرتيرة.

د. /: لم يكسب والدك الكثير من المال من مهنته كرسام.

ك. ل. ش: من القليل إلى الأقل، حسب تغير ذوق الجمهور.

د. /: إذا، لم تكن طفولتك طفولة ابن البرجوازية الباريسية؟

ك. ل. ش: كانت كذلك ثقافياً عبر الحياة في وسط فني، وقد كانت غنية جداً فكرياً، لكننا كنا نتخبط في مصاعب مادية.

د. /: هل لديك ذكريات محددة عن هذه المصاعب؟

ك. ل. ش: أذكر القلق عندما ينعدم الطلب على اللوحات. وفي هذه الحالة، كان أبي يبتدع أنواعاً شتى من المهن الصغيرة (فهو «محرّق»^(*) جيد). لقد انهمكنا، في فترة من الفترات، في طباعة

(*) الحرقعة: bricolage: كلمة عامية في اللهجات المشرقية تدل على القيام بعمل ما بواسطة أدوات غير مخصصة أصلاً لهذا العمل. أي ابتداء وظائف جديدة بطريقة غير مألوفة أو غير متوقعة. ←

الأقمشة في المنزل، حيث كنا نحفر لوحات من الشمع، ونغريها بواسطة لاصق نضغطه على مخمل كي نثبت عليه نثرات معدنية متعددة الألوان نبعثرها فوقه.

د. ل.: وهل كنت تشترك في هذه النشاطات؟

ك. ل. ش: نعم. حتى أنني أبدعت عدة طرازات! في فترات أخرى، كان أبي يصنع طاولات صغيرة على النمط الصيني، ومصابيح كان يلصق على زجاجها طبعاات يابانية رخيصة الثمن. لقد كان كل هذا ضرورياً لتدبير نهايات الأشهر.

د. ل.: هل احتفظت بلوحات من رسمه؟

ك. ل. ش: قليلاً، فبسبب النهب لم يبق لوالدي في نهاية الحرب أي شيء، ولا حتى سرير...

د. ل.: تحدثت عن مجموعة العاديات اليهودية التي جمعها أبو جدتك. هل حافظ والدك على ارتباط ديني؟

ك. ل. ش: لم يكن والداي مؤمنين إطلاقاً. لكن أُمي، كونها ابنة حاخام ترعرعت في جو مختلف.

د. ل.: هل عرفت جدك الحاخام؟

ك. ل. ش: جيداً جداً. لقد عشت معه خلال الحرب العالمية

ولهذا المفهوم أهمية خاصة في فكر ليفي - شتراوس كما سنرى فيما بعد في الفصل الحادي عشر تحديداً عندما يقارن بين الحرقعة وعمل الفكر الأسطوري ليدل على أن الفكر الأسطوري لم يختف أبداً إنما هو موجود في مجتمعاتنا المعاصرة بأشكال أخرى (الأعراف، العقائد، الموسيقى...) - المترجم -

الأولى، عندما استقرت أُمِّي وخالاتي عنده مع أبنائهن بعد أن جُنِّد أزواجهن.

د. ل: خارج هذه الفترة التي عشت فيها عند جدك نشأت في مناخ غير مؤمن، لكن ربما كان التقليد اليهودي حاضراً رغم كل شيء؟

ك. ل. ش: من جهة عائلة أبي، بقيت جدتي متعبدة، بيد أن في علاقة هذه العائلة بالدين يهجع مس من الجنون تجلّى بطرق مأساوية حيناً، وهزلية حيناً آخر. فأحد أعمامي لم يكن يملك رأساً صلباً فانتحر موسوساً بتأويل التوراة، وكان عمري آنذاك ثلاث سنوات. وكان عم آخر قد أصبح كاهناً - قبل ولادتي - لينتقم من أبويه إثر مشاجرة معهما. ولوقت ما، ضمت العائلة إليها رئيس دير... وقد تذكرته فيما بعد، عاملاً صغيراً في شركة الغاز متأنقاً دائماً، مع شارب أشقر معقوف، مغتبطاً بشخصيته وبموقعه.

أما من جهة عائلة أُمِّي، فجدي الحاخام كان ورعاً وسمحاً، يمارس الطقوس بخشوع، لقد حضرت جميع الأعياد الدينية لثلاثة أو أربعة أعوام متتالية. أما جدتي - زوجته - فكان إيمانها مشكوكاً فيه حتى من قبل بناتها. ففي بايون أدخلتهن إلى مدرسة الراهبات لأنها كانت أفضل مؤسسة تعليمية. وكانت كبرى خالاتي تستعد للالتحاق بسيفر^(*) وربما فعلت (لم أعد أذكر) وذلك في وقت كان فيه سكان الإقليم يرون في السيفريات شياطين صغيرة. كم كانت زوجة الحاخام واسعة الأفق!

أما والداي، فرغم عدم إيمانهما، كانا قريبين - بتأثير

(*) سيفر: منطقة صناعية فرنسية تقع جنوب غرب باريس. توجد فيها المدرسة العليا لإعداد المعلمين، فكان يطلق على طلابها اسم السيفريين. - المترجم -

طفولتهما- من التقليد اليهودي. لم يكونا يقيمان الأعياد، لكنهما كان يتحدثان عنها. وفي فرسأي، احتفلا ببارميتشفاي^(*)، دون أن يضطرا - كي يجعلاني أستعد له - لذكر أسباب أخرى غير عدم إزعاج جدي.

د. ل. ش: ألم يقلقك الشعور الديني أبداً؟

ك. ل. ش: إذا كنت تقصد بالدين علاقة مع إله شخصي. أبداً.

د. ل. ش: هل لعب هذا «اللاإيمان» دوراً في تطورك الفكري؟

ك. ل. ش: لا أعرف. كنت في مراهقتي متشديداً جداً في ذلك، أما اليوم، ويعد أن درست ودرّست تاريخ الأديان - كل الأديان - فقد أصبحت أكثر احتراماً لها مما كنت عليه في الثامنة عشرة والعشرين من عمري. إضافة لذلك، ورغم إعطائي أذنا صماء للإجابات الدينية يملكني إحساس متزايد بأن الكون وموقع الإنسان في العالم يتجاوزان فهمنا وسيظلان كذلك دائماً. وأشعر أحياناً أنني أقرب إلى المؤمنين من العقلانيين الصارمين، لأن لديهم على الأقل حسّ الفامض الذي يبدو لي الفكر عاجزاً تكوينياً عن إجلائه. ويجب أن نقنع بالاستنزاف المستمر للمعرفة العلمية على حدوده. لكن بالنسبة لي، ليس ثمة ما هو أكثر إثارة وأكثر غنى للفكر من محاولة متابعة هذه المعرفة دنيوياً مع بقاءنا واعين تماماً أن كل تقدم يثير مشاكل جديدة، وأن المهمة لا تنتهي أبداً.

(*) بارميتشفا: عيد يهودي يقام للصبي عند بلوغه. - المترجم -

د. /: هل قضيت كل فترة الحرب العالمية الأولى عند جدك، في

فرساي؟

ك. ل. ش: نعم، من 1914 إلى 1918 وهناك بدأت دراستي: في المدرسة البلدية، في ثانوية هوش. وعندما عدنا إلى باريس، درست السنة السادسة في جانسون - دو - سايب.

د. /: هل عانيت كثيراً أثناء الحرب؟

ك. ل. ش: لا، فقد تم فرز أبي، لأسباب صحية، إلى الخدمات المساعدة، كممرض في المستشفى العسكري في فرساي. ولم يمض من عائلتنا في الحرب إلا شخص واحد، كان خريجاً لامعاً من المدرسة العليا. وقد ذكر موريس باريه رسائله في الحرب وعلق عليها في «عائلات فرنسا الروحية المتعددة».

د. /: إذاً، بعد الحرب، التحقت بجانسون - دو - سايب.

ك. ل. ش: تابعت دراستي فيها حتى البكالوريا.

د. /: هل أثر فيك أحد أساتذتك؟

ك. ل. ش: لا أعتقد ذلك، كانوا يبدون تجاهي ودّاً متفاوتاً، لكن لم يلعب أي منهم دور المعلم الروحي.

د. /: إذاً، تعرفت على فكر ماركس عبر قنوات أخرى؟

ك. ل. ش: سبق أن أشرت إلى علاقة أبي مع عائلة بلجيكية. في الواقع كنا نقضي كل الإجازات معاً. وذات صيف، التقيت عندهم بأحد أصدقائهم المقربين، وهو شاب بلجيكي اشتراكي وحزبي معروف

في بلده. فطرحته عليه أسئلة حول كتاب لا نسمع شيئاً عنهم في دراستنا الثانوية: ماركس، برودون.. وقد أتاح لي قراءتهم.

د. /: كم كان عمرك آنذاك؟

ك. ل. ش: 16 سنة، وقد سحرني ماركس مباشرة.

د. /: بأي كتاب بدأت؟

ك. ل. ش: لا أعرف. لكنني سرعان ما انكبت على قراءة «رأس المال».

د. /: ألم تتراجع أمام صعوبته؟

ك. ل. ش: لم أكن أفهم كل شيء. في الواقع، اكتشفت بقراءتي لماركس أنماطاً أخرى من الفكر كانت جديدة بالنسبة لي: كهيجل وكانط..

د. /: وربما هذا ما وجهك نحو دراسة الفلسفة

ك. ل. ش: لا أعرف، على أية حال، بدأت دراستي للفلسفة بشكل سيء جداً. ولم أرتبط بها فعلاً إلا في منتصف السنة.

د. /: ما الاتجاهات الفلسفية لأستاذك آنذاك؟

ك. ل. ش: كان برغسونياً. اشتراكياً وبرغسونياً.

د. /: ألم تستهوك البرغسونية أبداً؟

ك. ل. ش: لا. بل إنني كنت أشعر بالعداء لها، حيث كان يبدو

لي أنها تترك المكان الأجمل للظواهر وللوعي المباشر.. لقد فهمتها فيما بعد بشكل أفضل، وامتدحتها في «الطوطمية اليوم»⁽³⁾.

د. إ. أصبحت ماركسياً بواسطة ذلك الصديق البلجيكي، لكنك أصبحت أيضاً حزبياً.

ك. ل. ش: لا أستطيع الجزم فيما إذا كان قد نظمني أم أنني اتجهت عفويًا باتجاه ذلك. لكنه على كل حال جعل حزب العمال البلجيكي يتبناني. وقد صدر أول نص مطبوع لي عن دار النشر التابعة للحزب: نص بعنوان «النسرين»، وهو كتيب حول غراتشوس بابوف أفضل أن أنسى وجوده. ثم أصبحت نشطاً داخل الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي كان يدعى آنذاك SFIO^(*).

د. إ. ما الاتجاهات السياسية لعائلتك في ذلك الوقت؟

ك. ل. ش: لم يكن لديها التزام سياسي. فمن جهة أمي كان الجميع، عند حاخام فرساي الأكبر، بعيدين جداً عن كل انشغال من هذا النوع. ومن جهة أبي: عائلة برجوازية طيبة كانت قد عرفت أياماً أفضل وتزودت بطبع واقٍ من السياسة. باستثناء أن أبي، وأعمامي شاركوا في شبابهم - كما كانوا يرددون - في مظاهرة مؤيدة لقضية دريفوس^(**) خطب فيها جوريس. وعندما اقتربوا في النهاية

(*) SFIO: القطاع الفرنسي من الحركة العمالية العالمية. - المترجم -

(**) قضية دريفوس: قضية حقوقية وسياسية شغلت الرأي العام الفرنسي وقسمته بين عامي 1894 و1906 ودفعته بتحالف اليسار إلى السلطة. وخلّصتها أن ألفريد دريفوس وهو ضابط فرنسي «يهودي». اتهم بالتجسس لصالح ألمانيا، فقاد اليسار الفرنسي حملة كبيرة أقتنع فيها الرأي العام أن دريفوس بريء وأنه حوكم خطأ، وأفضى ذلك إلى العفو عنه ورد الاعتبار له. وجوريس الذي أتى ذكره هنا سياسي فرنسي يساري شهير كان من أقطاب هذه الحملة. - المترجم -

ليشكروه، أجابهم إجابة ملتبسة «أمل أنكم سوف تتذكرون ذلك» الأمر الذي كان يعني «لقد جئتم إلينا لكنكم سوف تبتعدون بسرعة». وهذا ما جرى في الواقع تماماً.

د. /: ثم تطور التزامك الحزبي نحو الأمام!

ك. ل. ش: كنت أمين «مجموعة الدراسات الاجتماعية لدور المعلمين العليا الخمس» رغم أنني لم أكن طالباً فيها. وكنت أميناً عاماً لفدرالية الطلاب الاشتراكيين.

د. /: هل عرفت في تلك الحقبة أشخاصاً ما تزال تراهم إلى

اليوم؟

ك. ل. ش: لقد مات من كانت تربطني بهم أفضل العلاقات: بيير بوافان، ثم جورج لوفرانك. وقد عرفت جيداً مارسيل ديا أيضاً.

د. /: هل ربطتك به علاقة وطيدة؟

ك. ل. ش: ليس تماماً. لقد عرفته عندما كنت -لكسب شيء من المال- سكرتيراً لنائب اشتراكي اسمه جورج مونييه، وذلك في السنوات السابقة للأستاذية^(*). وهكذا كنت أتردد إلى غرفة النواب عندما كان مارسيل ديا أمين المجموعة الاشتراكية.

د. /: متى كان ذلك؟

ك. ل. ش: من 1928 إلى 1930 وهي سنة الأستاذية. وعندها تركت هذا العمل لضيق الوقت.

(*) الأستاذية: مسابقة لاختيار أساتذة للتعليم الثانوي ولبعض المواد الجامعية (حقوق، اقتصاد...)- المترجم -

د. /: فلنرجع إلى دراستك. تركت جانسون وشرعت في دراسة الفلسفة.

ك. ل. ش: لأنني لم أكن أعرف ماذا أفعل غير ذلك.

د. /: إذاً، هو خيار سلبي تماماً.

ك. ل. ش: نعم. بعد جانسون انتسبت بداية إلى الهيبوكان^(*) في كوندروسيه. لكنني صدمت بسبب صعوبة اللغة اليونانية والرياضيات، وهكذا تورطت في دراسة الحقوق.

د. /: من كان أستاذك في كوندروسيه، في الهيبوكان؟

ك. ل. ش: أندريه كريسون. وقد قال لي عندما قررت ترك الهيبوكان: «إنك لم تخلق للفلسفة، ولكن لشيء ما قريب منها» واقترح علي دراسة الحقوق. في الواقع كانت رؤيته صحيحة تماماً. لكن ذلك «الشيء» كان الإثنولوجيا.

د. /: أين درست الحقوق؟

ك. ل. ش: في كلية الحقوق في باريس، التي كانت في ساحة البانتيون، وأصبحت اليوم جزءاً من السوربون باريس I، على ما أعتقد.

د. /: كم بقيت فيها؟

ك. ل. ش: حتى حصلت على الإجازة. وحصلت في الوقت نفسه على إجازة في الفلسفة.

^(*) الهيبوكان: صف تحضيري للمدرسة العليا لإعداد المعلمين. - المترجم -

د. ل. ش: من أين؟

ك. ل. ش: من السوربون.

د. ل. ش: حصلت على الإجازتين في آن معاً؟

ك. ل. ش: في تلك الفترة، كان طلاب الحقوق يستغنون غالباً عن حضور الدروس ويحفظون الملخصات عن ظهر قلب. لكن دراسة الحقوق أضجرتني، فانعطفت إلى الفلسفة. ها أنت ترى أنها دائماً أسباب سلبية.

د. ل. ش: وهنا، هل طبعك الأساتذة بطابعهم أو أثروا فيك؟

ك. ل. ش: أخشى أن أقول لك «لا» مرة أخرى. وهذا ليس انتقاداً لهم، لكنه انتقاد لنفسي، فقد كنت أتابع دروس برونشفيتش دون أن أفهم شيئاً.

د. ل. ش: كم سنة تابعت هذه الدروس؟

ك. ل. ش: عدة سنوات، حتى الأستاذية.

د. ل. ش: ودائماً دون أن تفهم شيئاً؟

ك. ل. ش: دائماً دون انطباع بأنني أفهم حقاً! كان من أساتذتي أيضاً ألبير ريفو، جان لابورت، لويس برييه، ليون روبان في الفلسفة اليونانية؛ فوكونيه وبوغليه في علم الاجتماع؛ أبيل ري في تاريخ العلوم.. وفي العمق، مررت عبر كل هذا كالشبح تقريباً، مع إحساسي بأنني كنت أبقي خارجاً.

سأبرهن لك إلى أية درجة كنت أشعر بقلة الالتزام: ففي يوم

إعلان نتائج الأستاذية، ذهبت إلى مكتبة متخصصة لأقتني بحثاً في علم الفلك. ليس لأنني أؤمن به لكن بدافع الثأر ولكي أؤكد لنفسي أنني لم أفقد استقلالتي الفكري.

د. ل. ش: ألم تكن شغفاً بدراستك؟

ك. ل. ش: أبدأ. فقد كانت السياسة تستهويني. أما كيف اجتزت الأستاذية؟ فهو أمر عجيب. لكنني في نهاية المطاف اجتزتها دون مشاكل، وحللت ثالثاً في الامتحان الأول. وهذه معجزة لا أجد لها إلا تفسيرين: الأول هو أنني لقيت عناية كبيرة من رفيق لامع جداً وكاثوليكي ورع ربما كانت تداعبه فكرة تحويلي عن ديني. لقد كان بارعاً في اللغة اليونانية فحضر لي النصوص. لا أعرف اليوم ماذا حل به لكنني أدين له بالكثير. أما التفسير الثاني فهو مضحك. أعطاني طبيب صديق للعائلة حبة -مورفين؟- كوكائين؟- ادّعى أنها ستشيط ذهني إذا شربتها قبل الدرس. كان يتم احتجاز الطلاب سبع ساعات في مكتبة السوربون لكي يحضروا هذا الامتحان النهائي. سارعت لشرب محتوى الحبة فوجدت نفسي في حالة سيئة جداً، لدرجة أنني اضطررت لقضاء ساعات التحضير ممدداً على كرسيين. سبع ساعات من دوار البحر! أضف إلى ذلك أنني كنت قد اخترت بالقرعة موضوعاً هو الأكثر كارثية مما يمكن تصويره: «هل يوجد علم نفس تطبيقي؟» وكان هنري والون عضواً في لجنة التحكيم، وهو الذي طالبنا بهذا النوع من المواضيع. مثّلت أمام اللجنة خائفاً دون أن أستطيع تحضير أي شيء، فارتجلت نصاً مُنح درجة ممتازة أعتقد أنني لم أتحديث فيه سوى عن سبينوزا. على كل حال، ربما أدى العقار مهمته!...

د. /: من تقدم لهذا الامتحان، ذلك العام؟

ك. ل. ش: فرديناند ألكيه الذي حصل على المرتبة الأولى.
وسيمون ويل أيضاً.

د. /: هل عرفتتها جيداً؟

ك. ل. ش: قد يكون من المبالغة قول ذلك. كنا نشرثر في أروقة
السوريون. وكانت أحكامها الباترة تبلبلني فمعها دائماً الكل أو لا
شيء.

لقد رأيتها فيما بعد في الولايات المتحدة حين جاءت لقضاء
فترة قصيرة قبل ذهابها إلى إنكلترا وموتها هناك، تواعدنا تحت
أعمدة واجهة بناء كبير (ربما مكتبة كولومبيا أو المكتبة العامة) وقد
تحدثنا جالسين على الدرجات. كانت نساء جيلنا المثقفات متطرفات
غالباً. لكن سيمون ويل دفعت هذا التصلب إلى أقصاه حتى تركت
نفسها تتدمر.

د. /: قمت بدورة الأستاذية مع سيمون دو بوفوار وموريس ميرلو

- بونتي.

ك. ل. ش: في ذلك الوقت، كان يتم القيام بهذه الدورة قبل
المسابقة. وهي دورة تربوية مدتها ثلاثة أسابيع. وقد وجدت نفسي
بالمصادفة في جانسون - دو سايب عند أستاذي السابق برفقة سيمون
دو بوفوار وموريس ميرلو- بونتي. وكنا ندرّس بالتناوب.

د. /: هل كان ذلك أول لقاء لك بهما؟

ك. ل. ش: نعم. ولم نر بعضنا بعد ذلك، لعدة سنوات.

د. ل: لقد ذكرت سيمون دو بوفوار هذه الفترة في مذكراتها.
وكتبت عنك: «كانت رياطة جاشه مهيبة، لكنه يستخدمها ببراعة،
وقد وجدته مضحكاً عندما شرح لسمعته بصوت حيادي، ويوجه ميت
جنون الشهوات⁽⁴⁾...».

ك. ل. ش: لا أذكر شيئاً من هذا.

د. ل: هل كانت علاقتهما جيدة؟

ك. ل. ش: يبدو لي ذلك. وما أزال أحفظ في ذاكرتي صورة
سيمون دو بوفوار في تلك الفترة: طافحة بالحيوية، بالسحنة النضرة
لرقيقة صغيرة.

د. ل: وميرلو - بونتي؟

ك. ل. ش: لقد عرفته جيداً فيما بعد، لذلك أمّحت الذكريات
الأقدم.

د. ل: بالعودة إلى الخلف، هل يبدو لك هذا اللقاء خلال
الأسابيع الثلاثة غريباً ومنذراً؟

ك. ل. ش: يبدو لي ذلك بشكل خاص بعيداً، وأقرب إلى
الخيال.

د. ل: ألم تصبح أبداً صديقاً لسيمون دو بوفوار؟

ك. ل. ش: أبداً. لكن ليس بدافع عدائي.

د. ل: ثم تتفاهما؟

ك. ل. ش: ليس هذا أيضاً. فهي وسارتر أصبحتا شهيرين

سريعاً. كانا يحتلان مكانة أعلى مني في الحياة الثقافية. كانا مُجَلِّين، ولم يكونا بحاجة إلي.. وعندما قَدِمْتُ مارغريت ميد إلى باريس عام 1949 كما أعتقد، جازفت بجمع «السيدة الأولى» للحياة الثقافية الأمريكية مع «السيدة الأولى» للحياة الثقافية الفرنسية. فقد أقمت استقبلاً صغيراً على شرفها. لكنهما لم تتبادلا الكلام!

د.ل: ربما بسبب حاجز اللغة؟

ك.ل.ش: ربما. لقد بقيت كل منهما في ركن من الغرفة محاطة بحاشيتها.

د.ل: لقد قمتما بدورة الأستاذية في الوقت نفسه. لكنها اجتازت المسابقة عام 1929 كما تقول في مذكراتها. أما أنت فاجتازتها عام 1931.

ك.ل.ش: إن إجازة الحقوق تتطلب سنة إضافية. كما أنني كنت أعمل لدعم ميزانية العائلة. ومع ذلك اجتزتها قبل الثالثة والعشرين من عمري.

عندما عرفت نتيجتي، سارعت في سيارة أجرة لأزف لوالدي هذا الخبر الكبير. لكنني صدمت بجو من الحزن يخيم على المنزل، كان في المنزل العم الوحيد الباقي على قيد الحياة من أعمامي. إن اليسر الكبير الذي تمتع به من خلال عمله في البورصة أتاح له، منذ زمن طويل، إعالة أمه وسند والدي في الأوقات العصيبة. وكان بصدد إخبارهما إن الأزمة أفلسته تماماً. وهكذا عرفت، في وقت واحد تقريباً، أن لديّ «وظيفة» وأن المصير المادي لوالدي سيكون من الآن فصاعداً همّاً دائماً.

د. إ: بعد الاستاذية، تم تعيينك في مون - دو - مارسان.

ك. ل. ش: ليس مباشرة. في البدء أديت الخدمة العسكرية. في ستراسبوغ لمدة 4 أشهر، ثم (بفضل صداقات سياسية) في وزارة الحربية، مع بضعة مجندين من بينهم بول غادين.

د. إ: هل اقمتما علاقة جيدة؟

ك. ل. ش: لا، كان صبيّاً دمثاً جداً لكنه متحفظ وقليل الميل لإنشاء علاقات مع الناس.

د. إ: ما مهمتكم في وزارة الحربية؟

ك. ل. ش: الخدمة الصحفية للوزير: نقرأ الجرائد ونقص منها ما يمكن أن يهمه. بالإضافة لذلك، كان الديوان يلقي على عاتقنا البريد الذي يعتبره قليل الأهمية.

د. إ: في ذلك الوقت تخلّيت عن أي نشاط سياسي.

ك. ل. ش: بالتأكيد. لم يكن ذلك محبّذاً. كنا إذا صادف أحدهنا الجنرال ويغان في أحد الممرات دون أن يقف باستعداد يتم إرساله إلى موقع عسكري..

د. إ: ما الصورة التي احتفظت بها من تلك الفترة؟

ك. ل. ش: لم تترك ستراسبورغ ذكرى سيئة. كنت صف ضابط، لكنني عرفت هناك أشخاصاً ظرفاء للغاية كما تعرفت إلى أقرباء كانوا يحشون جيوبهم بالماكولات. أما في باريس فلم يكن ثمة الكثير من العمل، ووجود شخص واحد منا يكفي للقيام به.

من أوفنباخ إلى ماركس

د.د.: تم تعيينك بعد الخدمة العسكرية أستاذاً في ثانوية مون -

دو - مارسان.

ك.ل.ش: لقد خُيِّرْت بين أوبيسون ومون - دو - مارسان،
فاخترت هذه الأخيرة. وقد تزوجت عشية الرحيل إليها. وهكذا كان
شهر العسل ووظيفتي الأولى في الوقت نفسه.

د.د.: واستقررتما هناك؟

ك.ل.ش: تسلمت وظيفتي في الأول من تشرين الأول /
أكتوبر عام 1932. وتورطت بسرعة في السياسية المحلية. حيث
ترشحت للانتخابات البلدية. وانتهت المسألة بسرعة بسبب تعرضي
لحادث سير. فقد كنت أقود دون رخصة سيارة مستعملة اشتراها بيير
دريفوس (وهو صديق طفولة ورفيق في الحزب الاشتراكي أصبح فيما
بعد مديراً عاماً لمؤسسة رينو ثم وزيراً للصناعة في عهد فرانسوا
ميتران) وجاء فيها إلى مون - دو - مارسان، ثم انطلقنا معاً للقيام
بالحملة. وبعد ساعة رميت السيارة في الوادي. كان هذا اليوم هو
الأول في الحملة، والأخير أيضاً بالطبع.

د.د.: كيف كانت سنة التدريس تلك؟

ك.ل.ش: جيدة جداً. هي السنة الأولى وقد استمتعت
بالتدريس.

د.د.: هل كان التزامك السياسي يتدخل في اختيار المواضيع

التي تدرسها؟

ك.ل.ش: آه، لا أبداً! كنت حيادياً في تدريسي، فالأمران

عندي مفصّولان تماماً. لم يكن هدفي أبداً تغيير أفكار طلابي. وقد درّست المقرر فقط.

د. ل. ش: هل احتفظت ببعض ذكريات هذه الإقامة اللاندية؟

ك. ل. ش: لقد احتفظت بذكريات الأوساط الاشتراكية أكثر من ذكريات الثانوية فالتجمعات السياسية تترافق غالباً باحتفالات تزخر بالأكلات اللذيذة. إنها الذكريات الأكثر دقة مما احتفظت به. وقد عادت إليّ ذكريات أخرى عندما انتخبت في الأكاديمية. فقد بحثت الصحيفة اللاندية الصغيرة عن تلاميذي القدامى ونشرت شهاداتهم، وقد كاتبني بعضهم.

د. ل. ش: لم تبق إلا سنة في مون - دو - مارسان؟

ك. ل. ش: تم تعييني في لاون، وتم تعيين زوجتي (الحاصلة أيضاً على الأستاذية) في أميان. سكنا عند أهلي في شارع بوسان، وكنا نجهد لحصر دروسنا في الجزء نفسه من الأسبوع.

د. ل. ش: وبدأت تجد التدريس أقل إمتاعاً؟

ك. ل. ش: في السنة الثانية بدأت أضجر فعلاً. لقد تملكنتي رغبة عارمة في التقل ورؤية العالم.

د. ل. ش: هل تابعت نشاطك السياسي، في لاون؟

ك. ل. ش: أقل من نشاطي في باريس، ذلك أني لم أطل المقام فيها، رغم أنها مع قساوتها الشديدة لم تكن خالية من الجاذبية. فلكتدراثيتها الضخمة مظهر أخاذ.

من أوفنباخ إلى ماركس

د.إ: كما في مون - دو - مارسان، لم تبقَ في لاون إلا عاماً واحداً؟

ك.ل.ش: عاماً وبضعة أشهر. فقد رحلت إلى البرازيل في بداية عام 1935.

د.إ: رويت في «المدارات الحزينة» رحيلك إلى البرازيل...

ك.ل.ش: نعم، أرسلني سيليستان بوغليه إلى جورج دوم، الذي كنت أعرفه لأنني تابعت دروسه في سانت - آن. وقد قبل أن يضماني إلى البعثة الجامعية التي يشكلها.

د.إ: هل كنت ما تزال على علاقة مع بوغليه؟

ك.ل.ش: إنه المشرف على بحثي في الدراسات العليا..

د.إ: ما موضوع هذا البحث؟

ك.ل.ش: عنوانه، حسب اعتقادي «المسلمات الفلسفية للمادية التاريخية»، وقد تناول ماركس من زاوية فلسفية.

د.إ: هل اخترت هذا الموضوع بنفسك؟

ك.ل.ش: بالتأكيد.

د.إ: هل كان شائعاً، في تلك المرحلة، اختيار رسائل دبلوم حول ماركس؟

ك.ل.ش: كان ذلك نادراً، لكنني مع ماركس اكتشفت عالماً، وكنت تحت تأثير هذا الكشف.

د. ل. ش: ومن هنا أتت رغبتك باختياره موضوعاً للبحث؟

ك. ل. ش: سأعترف أنني كنت آنذاك أحلم بأن أصبح فيلسوف الحزب الاشتراكي.

د. ل. ش: إذا أعدت التفكير بذلك اليوم، هل تجد ذلك مسلياً؟

ك. ل. ش: لا، لا أستطيع القول إنني أشعر بالسخرية تجاه ذلك. لقد كان الحزب الاشتراكي وسطاً حياً يمكن للمرء فيه أن يحس أنه داخل جلده. إن فكرة إقامة جسر بين التقليد الفلسفي العظيم أي ديكرت، لينينز، كانط، وفكر سياسي كالذي جسده ماركس، هي فكرة مثيرة حقاً. وحتى اليوم أتفهم أن حلمي كان مشروعاً.

د. ل. ش: هل وافق بوغليه على بحثك دون تحفظ؟

ك. ل. ش: نعم، لكن كان ثمة اختبار شفهي حول موضوع محدد بالإضافة إلى البحث. وقد اختار بوغليه، كي يحقق نوعاً من التوازن، سؤالاً حول السان - سيمونية، الأمر الذي لم يكن بعيداً عن اهتماماتي، لكنه يوجهها باتجاه أكثر توافقاً مع توجهه الخاص.

د. ل. ش: لماذا اخترت بوغليه للإشراف على عملك؟

ك. ل. ش: إنه - عملياً - الوحيد آنذاك الذي يقبل الإشراف على هذا النوع من المواضيع. لقد كان بمقدوري اختيار فوكونيه، لكنني كنت متمرداً على تبعيته الدوركهامية. كان بوغليه مدير المدرسة العليا لإعداد المعلمين ولا ينظر بتعالٍ إلى من ليس من خريجيه، فقبل فوراً. وهذا يفسر لك لماذا أعلمته بعد الأستاذية برغبتني الكبيرة بالسفر إلى الخارج.

د. إ: لأنه يشغل مناصب رسمية في وزارة الخارجية؟

ك. ل. ش: كلا، بل لأنه إلى حدٍّ ما حامٍ لكل السوسيولوجيين الشباب.

د. إ: وهل أردت أن تصبح سوسيولوجياً؟

ك. ل. ش: أردت أن أصبح إثنولوجياً، ولم تكن الحدود بين السوسيولوجيا والإثنولوجيا صارمة بعد.

د. إ: هل أصبح شائعاً، في ذلك الوقت، أن يتجه الحاصلون على أستاذية الفلسفة باتجاه فروع أخرى، باتجاه ما ندعوه اليوم «العلوم الإنسانية» كما سيتم غالباً بعد الحرب الثانية؟

ك. ل. ش: بدأت هذه الظاهرة بالبروز على نطاق ضيق.

د. إ: لماذا قررت أن تصبح إثنولوجياً؟

ك. ل. ش: لنقل إنه اتفاق الظروف. فقد شغفت منذ طفولتي بالمتحف الغربية، وكنت أصرف ادخاراتي الصغيرة عند السقّاطين.

أضف إلى هذه الميول أننا -نحن الفلاسفة الشباب- بدأنا نعرف وجود فرع يسمى الإثنولوجيا، وأنه يطمح إلى الحصول على وضع قانوني رسمي. لم يكن ثمة كرسي للإثنولوجيا في الجامعات الفرنسية، لكن معهد الإثنولوجيا كان قد تأسس، وتحول المتحف القديم للإثنوغرافيا في تروكاديرو إلى متحف الإنسان. ومن هنا، بدأ التحرك باتجاه الإثنولوجيا. إن أول شخص حصل على أستاذية الفلسفة يتحول إلى الإثنولوجيا هو جاك سوستيل.

وبناء على ذلك، قرأت كتاباً أو اثنين لإثنولوجيين

أنغلوساكسونيين، وبشكل خاص بحث السوسيولوجيا البدائية لروبرت لوي، الذي أسرني بامتزاج النظري فيه بالعمل الميداني. وهكذا لمحت وسيلة للتوفيق بين تأهيلي المهني وتوقي للمغامرة، فكم من «بعثة» قمت بها، في طفولتي ومراهقتي، إلى الريف الفرنسي، بل حتى إلى ضواحي باريس!

وأخيراً، فإن بول نيزان الذي التقيت به مرتين أو ثلاثاً في اجتماعات العائلة (كان متزوجاً من إحدى قريباتي) أخبرني عن شغفه بالاثولوجيا وهذا ما شجعني.

د. /: كيف كانت شخصية بول نيزان؟

ك. ل. ش: كان، حسب ذاكرتي، بارداً ومحتسماً في الوسط البرجوازي الذي يفرقه زواجه فيه من وقت لآخر. لقد قرأت له «عدن - العربية» وأعجبني كثيراً.

د. /: هل قرأت كتبه الأخرى؟

ك. ل. ش: نعم، فيما بعد، قرأت «أنطوان بلويه» و«كلاب الحراسة».

د. /: من المفترض أن يؤثر كتاب مثل كلاب الحراسة تأثيراً كبيراً على فيلسوف شاب. هل تأثرت به؟

ك. ل. ش: نعم، من حيث أنه يدخل في إطار نقد ماركسي لفلسفة المؤسسة. لكنني أحترم الأساتذة الذين هاجمهم بضراوة شديدة. فكلانا تتلمذ على يد الأساتذة عينهم، مع فارق عدة سنوات بطبيعة الحال. إنني أحترم برونشفيتش ولابورت، وروبان..

د. ا: لماذا لم تحاول معرفة نيزان بشكل أفضل؟ يبدو أن كثيراً من الأشياء تقريركما.

ك. ل. ش: هو الأكبر سنأ، ولم يفعل شيئاً لتشجيع علاقتنا. بالإضافة إلى أنني (معه كما مع غيره) كنت أشعر أنني لست في المستوى. فمثلاً، لم أكن أجرؤ على الدخول إلى الكوليج دو فرانس لمتابعة أي درس فيه. كنت أراه مكاناً جليلاً مخصصاً لمن هم أطول باعاً مني.

الفصل الثاني

الإثنولوجي في الميدان

د. إ. في شباط (فبراير) عام 1935، أقلك مركب من مارسيليا باتجاه ساويالو. فقد حصلت على مركز في جامعة المدينة بفضل جورج دوما. ما هي روابط عالم النفس الكبير مع البرازيل؟

ك. ل. ش: كان تأثير فرنسا قوياً جداً في البرازيل منذ الكونتية. وكانت الفرنسية اللغة الثانية للمتقنين البرازيليين. لقد أقام جورج دوما عدة مرات هناك، وأنشأ علاقات مع الأرستقراطية المحلية خاصة في ساويالو. وعندما أراد البرازيليون إنشاء جامعة في هذه المدينة، اتجهوا بشكل طبيعي إليه ليشكل بعثة فرنسية.

د. إ. متى أنشئت هذه الجامعة؟

ك. ل. ش: قبل عام من مجيئي إليها. كنت من الدفعة الثانية.

د. إ. هل كان ثمة بعثات أخرى غير البعثة الفرنسية؟

ك. ل. ش: بعثة إيطالية، ضمت بشكل خاص اينفارييتي. ويجب

القول إن عدد الإيطاليين في ساو باولو كان ضخماً يقارب نصف عدد سكانها. هناك أيضاً بعض الأساتذة الألمان، إنما بصفة فردية، فهتلر كان في الحكم.

د. ل.: كيف كان مناخ الجامعة عندما وصلت إليها؟

ك. ل. ش: أنشئت الجامعة من قبل كبار البرجوازيين في وقت كان فيه التوتر ما يزال محتدماً بين السلطة الباولية، والحكومة الفدرالية، إلى حد أنه أوشك أن يفتح الطريق أمام الانفصال. فأهالي ساو باولو يعتبرون أنفسهم الجزء الفعال من أمة تغط في سبات استعماري. ولقد قرر هؤلاء الأرستقراطيون البرجوازيون إنشاء هذه الجامعة لكي يرقوا بالشباب الباولي إلى مستوى الثقافة الأوروبية.

لكن طلاب هذه الجامعة كانوا يشي من المفارقة- ينتمون إلى الطبقات الدنيا لأن ثمة تفاوتاً واضح المعالم بين النخبة وكتلة المجتمع التي بقيت فقيرة وبفكر ريفي. كان هؤلاء الطلاب وأعلامهم أشخاص انخرطوا من قبل في حياة مهنية- يخامرهم الشك في البرجوازيين مؤسسي الجامعة. وهكذا وجدنا أنفسنا بين معسكرين. فالطلاب يرون فينا أحياناً خدماً للطبقة المسيطرة على الرغم من اعتبارهم لنا أشخاصاً قيّمين.

د. ل.: ألم تكونوا مع ذلك «كلاب حراسة للبرجوازية»؟

ك. ل. ش: لا، لكن كان ينبغي الانتباه لئلا نبدو كذلك.

د. ل.: كيف كان سير الدروس؟

ك. ل. ش: كان الطلاب يمتلكون شهية جبارة للمعرفة. إضافة

إلى أنهم بمعنى ما يعرفون أكثر منا، لأنهم -كعضامين- قرؤوا كل شيء بنهم كبير، إنما من أعمال متناقلة بتوسطات عديدة. لم تكن مهمتنا تعليم أشياء يجهلون، بقدر ما كانت تزويدهم بنظام فكري.

د. /: أين كان موقع الجامعة؟

ك. ل. ش: في مركز المدينة، في أبنية قديمة ما زالت تتم عن المناخ الاستعماري. في حين أنها اليوم -وقد أصيبت كغيرها بالعملة- توجد في صروح من نمط جامعتي جوسيو أو ناننتير، وسط حرم واسع أجرد.

د. /: كم كان عدد طلابها؟

ك. ل. ش: عدة دستات.

د. /: هذا كثير.

ك. ل. ش: آه، نعم! إنهم كل الشباب الباولي أو على الأقل الذين يمتلكون منهم الحد الأدنى من الإمكانيات. وكان زملائي مدرسو الأدب الفرنسي يستقبلون حضوراً آخرين، لأن نخبة المجتمع تأتي لسماعهم.

د. /: أنت نفسك، هل قمت بتدريس السوسيولوجيا؟

ك. ل. ش: هكذا سمّي الكرسي.

د. /: لكن السوسيولوجيا والإثنولوجيا لم تكونا مفصولتين

تماماً، لذلك ربما أمكنك تدريس الإثنولوجيا؟

ك. ل. ش: لا تنس أن البرجوازية البرازيلية تمتلك تقليداً

فكرياً عميقاً يمتد حتى أوغست كونت. الذي أثر تأثيراً ضخماً على
برازيل القرن التاسع عشر، لدرجة أن علم البرازيل يحمل عبارته
«Ordem.e Progresso»

د. /: هل كان تأثير أوغست كونت ما يزال ملحوظاً؟

ك. ل. ش: في تلك الحقبة، استمر وجود تيارات وضعية
شديدة الحيوية. لكن البرازيليين المثقفين انتقلوا من كونت إلى
دوركهايم، الذي مثل لهم وضعية محدثة. وبالتالي فالسوسيولوجيا هي
ما أرادوه.

د. /: الأمر الذي ربما ازعجك قليلاً.

ك. ل. ش: لقد رحلت إلى البرازيل لأنني أردت أن أصبح
إثنولوجيا. فقد أسرتني إثنولوجيا متمردة على دوركهايم الذي لم يكن
ميدانياً، واكتشفت الإثنولوجيا الميدانية عبر الإنكليز والأمريكيين.
لم أكن إذاً في المكان الصحيح. فقد تم استدعائي كي أعمق
التأثير الفرنسي من جهة، والتقليد الكونت - دوركهايمي من جهة
ثانية. ووصلت مأسوراً في ذلك الوقت بإثنولوجيا ذات روح
أنغلوساكسونية. وهذا ما خلق لي مصاعب جدية.

د. /: مصاعب من أي نوع؟

ك. ل. ش: وضع جورج دوم في الجامعة - منذ السنة الأولى -
قريباً شاباً، وهو سوسيولوجي. وعندما وصلت بدوري سوسيولوجياً
ثانياً، إذا أمكن القول، أراد أن أصبح تابعاً له. وقد قاومت ذلك فجهد
لطردي باسم التقليد الكونتي الذي كان مختصاً به والذي انتهكته.
وقد أعاره أرباب الجامعة (وهم أنفسهم أصحاب الصحيفة الكبرى

O Estado de Sao Paulo) أذاناً صاغية. وأنا أدين ببقائي آنذاك لتضامن مجموعة من الزملاء الميتين حالياً: بيير مونبيغ وفرناند بروديل الذي دعمني بما يتمتع به من نفوذ. وقد ذكرت ذلك عام 1985 في خطابي أثناء حفل تسليمه سيف الأكاديمية⁽⁶⁾.

د. /: بقيت في البرازيل، لكنك لم تبدأ على الفور ببعثة إلى الهند؟

ك. ل. ش: منذ نهاية السنة الأولى، وعوضاً عن العودة إلى فرنسا، ذهبنا -أنا وزوجتي- إلى الكاديفيو والبورورو⁽⁶⁾. وقبل ذلك، بدأت مع طلابي بإجراء دراسات إثنولوجية حول مدينة ساو باولو نفسها وحول فولكلور الضواحي. الذي اهتمت به زوجتي بشكل خاص.

د. /: هل بقي شيء من هذه الأعمال؟

ك. ل. ش: ربما بقيت تحقيقات كلفت بها طلابي. ومنذ عدة أيام شاهدت، مدهوشاً، بداية فيلم وثائقي صورناه في احتفال ريفي. وقد عرضه البرازيليون في بوبورغ مع ما تبقى من وثائقي المصورة للكاديفيو والبورورو.

د. /: ما انطباعك وانت تقوم بتجربتك الميدانية الأولى؟

ك. ل. ش: كنت في حالة إثارة فكرية شديدة. وشعرت بأنني أعيش من جديد مغامرات أوائل مسافري القرن السادس عشر. كنت أكتشف العالم الجديد. وبدأ لي شيئاً خارقاً: المناظر، الحيوانات، النباتات...

د. /: إذاً، قضيت عدة أشهر ميدانية ثم سنة تدريس..

ك. ل. ش: ثم عدنا إلى فرنسا لقضاء العطلة التالية. في صيف 1936 – 1937 الذي يوافق الشتاء عندنا.

د. ل.: **وحينئذ نظمتم معرضكما الأول، في متحف الإنسان؟**

ك. ل. ش: ليس في متحف الإنسان بالتحديد، لأن التروكاڨيرو القديم كان يرمم استعداداً لمعرض 1937، ولم تكن الأعمال فيه قد انتهت بعد. لكن جورج – هنري ريفيير (وكان هذا لقائي الأول به) حصل على موافقة معرض مفروشات فيلدنشتاين (على تقاطع شارعي فوبورغ – سان – هونوريه ولابويتي). لإعارتنا مقره.

د. ل.: **ما الذي احتوته المجموعة التي جلبتهاها؟**

ك. ل. ش: إنها مجموعة إثنولوجية جيدة وأستطيع أن أقول ذلك الآن بعد أن توفرت لي معايير للمقارنة. جلبنا من الكاديفيو خزفيات ملونة وجلوداً رسمت عليها عناصر تزيينية Motifs فريدة لا توجد إلا هناك في أمريكا. أما تحف البورورو فقد ضمت تزيينات بريش وأسنان وأظافر الحيوانات، فالبورورو يزينون بغنى حتى أسلحة صيدهم وأدواتهم المنزلية. لقد احتوت على قطع مميزة جداً.

د. ل.: **كيف استقبل المعرض؟**

ك. ل. ش: لم ينل النجاح المؤمل. لكني أعتقد أنه لفت النظر مع ذلك.

د. ل.: **وأصبحت صديقاً لجورج – هنري ريفيير.**

ك. ل. ش: ليس في تلك الفترة، فقد عدت إلى البرازيل حالماً انتهت العطلة. وعندما رجعت إلى فرنسا ثانية وجدت بانتظاري

التجنيد والحرب... وبعد ذلك رحلت إلى الولايات المتحدة. ولم أقم روابط مع ريفيير إلا في 1949 - 1950.

د. ل. ش: هل عاودت التدريس عندما عدت إلى البرازيل بعد عطلة
شتاء 1936 - 1937؟

ك. ل. ش: كان يجب أن أثبت جدارتي كإنشولوجي، لأنني لم أتلق أي تأهيل من قبل. وقد حصلت بفضل معرض عام 1936 على قروض من متحف الإنسان والبحث العلمي مكنتني من القيام ببعثة إلى النامبيكوآرا.

د. ل. ش: إنها بعثة استمرت أكثر من عام.

ك. ل. ش: لم أعد إلى فرنسا إلا بداية عام 1939.

د. ل. ش: يلزم الكثير من الشجاعة والصحة الجسدية للصمود أثناء البعثات. وقد رويت في «المدارات الحزينة» نزهات في أماكن مستحيلة وعبور أنهار ورحلات بالنقيرة*).

ك. ل. ش: كل إنسان يمتلك هذه القدرة على التحمل عندما يكون شاباً.

د. ل. ش: لكن عند قراءة أعمالك تكون لدي مباشرة انطباع بأنك تمتلك مقاومة خاصة.

ك. ل. ش: لا أعتقد ذلك. لكنني كنت في البعثات محمياً - كما هو الحال غالباً في كل حياتي - نتيجة نقص في المخيلة.

(*) النقيرة: قارب صغير مصنوع من جذوع الأشجار. - المترجم -

د. /: تقصد عدم وعي الخطر؟

ك. ل. ش: بالضبط.

د. /: مع ذلك، يبدو لي أنك في بعض اللحظات شعرت بالخوف.

ك. ل. ش: إنني أخاف عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء، أما في اللحظة نفسها فلا أعير الأمر اهتماماً. على أية حال يجب ألا نبالغ: فأنا لا أعتقد أنني جازفت كثيراً بحياتي.



د. /: تعرفت، في البرازيل، كما قلت قبل قليل، على فرناند بروديل.

ك. ل. ش: نعم، لقد أتى بعد سنة من مجيئي.

د. /: هل التقيت به منذ وصوله؟

ك. ل. ش: بالطبع، فالأساتذة الفرنسيون يشكلون رابطة صغيرة.

د. /: كيف تم هذا اللقاء؟

ك. ل. ش: كان بروديل واثقاً من نفسه ومن فرق العمر ومن وضعه الأعلى ضمن التراتبية الجامعية.

د. /: لكنه لم يكن مشهوراً في ذلك الوقت؟

ك. ل. ش: كان سيصبح كذلك! كنا نعرف مسبقاً أن مستقبله

زاهراً ينتظره في التعليم العالي. فهو أكبر سناً وأكثر تقدماً منا في حياته المهنية وفي أطروحته. لم يكن قد كتبها بعد، لكنه عندما نقل موادها احتاج إلى غرفة إضافية في الفندق لترتيبها، قبل أن يستأجر منزلاً.

د. ل: لماذا قدم إلى البرازيل؟

ك. ل. ش: بالنسبة لشخص يهتم بالبحر الأبيض المتوسط وبالعالم الإيبيري، أتصور أن معرفة أمريكا اللاتينية التي تشكل إقليماً تابعاً لهما ليست دون فائدة.

د. ل: يبدو أن علاقتكما كانت محدودة!

ك. ل. ش: كان يعاملنا بشيء من التعالي. ولم يتوقف عن ذلك إلا عندما تعرضت للمشاكل التي ذكرتها منذ قليل، حيث وضع كل ثقله في الميزان من أجلي.

د. ل: هل كنت تتحدث عن أعمالك الخاصة؟

ك. ل. ش: لقد قلت لك إن المدرسين شكلوا مجموعة صغيرة. لكن يجب أن أضيف أنها كانت مجموعة متناوبة. فقد تولّد لدى كل منا شعور بأن حياته المهنية متوقفة على نجاحه أو فشله في البرازيل. ولذلك كان يحاول أن يحيط نفسه بحاشية تابعة له حصراً وأكثر أهمية من حاشية جاره. إن هذا العرف «فرنسي» جداً وجامعي «جداً»، لكنه -نقله إلى جنوب المدارين- مخجل إلى حد ما، وغير صحي على الإطلاق.

د. ل. : وانغارييتي، هل تعرّفت عليه؟

ك. ل. ش: قليلاً. فما كان يجري داخل كل بعثة جامعية ينطبق أيضاً وعلى نطاق أوسع على العلاقة بين البعثات. فهي تشعر بالتنافس وتتعامل مع بعضها بريبة.

د. ل. : تركت البرازيل عام 1939؟

ك. ل. ش: في بداية السنة. فقد أردت العودة إلى فرنسا مع مواد البعثة بغية استعادة الحياة الجامعية وتحضير أطروحة...

د. ل. : ولم تعد إلى البرازيل أبداً؟

ك. ل. ش: حتى عام 1985 ...

د. ل. : قبل أن تعاود زيارة البرازيل، ألم تشعر ببعض الحنين لهذا

البلد الذي أحببته حباً جماً؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. لكنني كنت أعرف أن كل شيء هناك يتغير بسرعة هائلة لدرجة أنني إذا ذهبت إليه، فلن أفعل سوى البكاء على ماضي. وبالفعل، هذا ما حدث عندما رأيت البرازيل مرة أخرى بعد نصف قرن.

د. ل. : هل كتبت مقالات خلال إقامتك في البرازيل بين عامي

1935 و 1939؟

ك. ل. ش: كتبت مقالاً طويلاً حول البورورو نشر في جريدة مجتمع الأمريكيون^(*). كما كتبت مقالات عديدة أخرى لا أهمية لها نشرت في مجلات مختلفة.

(*) أمريكي: المختص بالدراسات المتعلقة بالأمريكتين (على نمط مستشرق). وقد ابتعدت عن مصطلح (متأمرك) لارتباطه بعمان أخرى. - المترجم -

د. /: الم تمتلك توقاً لتأليف كتاب انطلاقاً من تجاربك

الميدانية؟

ك. ل. ش: في ذلك الوقت تملكني شعور بأنني غير قادر على تأليف كتاب.

د. /: على أية حال، عندما عدت إلى فرنسا كنت قد نشرت عدة مقالات.

ك. ل. ش: لكنها ضئيلة الأهمية باستثناء المقالة حول البورورو. إنها مقالات صحفية أكثر مما هي إثنولوجية.

د. /: هل لفتت هذه المقالات الأنظار؟

ك. ل. ش: لقد استطعت الذهاب إلى الولايات المتحدة بفضل مقالتي حول البورورو. فقد استرعت انتباه ألفريد ميترو وروبرت لوي اللذين لعبا دوراً حاسماً في ذلك.

د. /: في الواقع، لقد لاقيت صدى طيباً منذ عملي الأول.

ك. ل. ش: نعم، لكن الفضل في ذلك يعود إلى توافق الظروف أكثر مما يعود لفضلي المتواضع: فقد بدأ الإثنولوجيون الأمريكيون يفكرون بالالتفات إلى نصف الكرة الجنوبي، بعد أن أكملوا طوافهم مع هنود أمريكا الشمالية. وجاء عملي في الوقت المناسب تماماً.

د. /: الم يكن لديك موطئ قدم جامعي عندما عدت إلى فرنسا؟

ك. ل. ش: كنت ما أزال منتدباً، وقد طلبت مركزاً من أجل بداية العام الدراسي.

د. ل. ش: ألم ترغب في الحصول على مركز في الحال؟

ك. ل. ش: كان عليّ أن أرتب مجموعاتي في متحف الإنسان، وأن أكتب بطاقة لكل تحفة منها، وهذا عمل طويل ودقيق.

د. ل. ش: كيف كانت هذه المجموعات؟

ك. ل. ش: كثيرة، لكنها أقل تميزاً من سابقتها، كما أن المعرض لم يقم. فبينما كنت أصنفها وأحللها اندلعت الحرب. وفي هذا الوقت أيضاً انفصلنا أنا وزوجتي الأولى دينا.

الفصل الثالث

البوهيمية في نيويورك

د. ل. ش: تم تجنيديك أثناء التعبئة للحرب.

ك. ل. ش: أجل. ولقد أنهيت خدمتي العسكرية في قطار لشحن المعدات! تم فرزي بداية إلى وزارة البريد، مصلحة رقابة البرقيات. حيث قضيت فيها عدة أشهر، لكنني ضجرت فطلبت أن أصبح عامل ارتباط مع الحملة البريطانية. تم إرسالني في البداية إلى مدرسة عناصر الارتباط في مكان ما من السوم. خضعت لعدة امتحانات. ورغم أن لغتي الإنكليزية ضعيفة، فقد تدبرت أمري، وهكذا أرسلت إلى الجبهة اللوكسومبورغية خلف خط ماجينو، في منطقة ليس فيها إنكليز، لكن مجيئهم محتمل. كنا هناك أنا وثلاثة أو أربعة عناصر آخرين لاستقبالهم إذا أتوا. لم يكن لدينا أي عمل، فكنت أتنزه في الريف طوال الوقت. أخيراً، عندما بدأ الهجوم الألماني، وصل فوج اسكتلندي لديه عناصر ارتباط تابعين له. وعندما تلقوا أوامر بالمسير طردونا بتهذيب لأن وجود عدد مضاعف منا قد يعيقهم. الأمر الذي ربما أنقذ حياتنا، فقد أبيد ذلك الفوج بعد عدة أيام.

بقينا وحدنا، فذهبنا للبحث عن قطعتنا العسكرية، ووجدناها أخيراً في إحدى قرى السارث. كان الألمان يتقدمون، لذلك حملنا جميعنا في قطار باتجاه بوردو. وسار هذا القطار عبر فرنسا. بخط متعرج، بسبب صراع عرفته فيما بعد: يبدو أن قائد القطعة أراد الانصياع للأوامر ولو سلم قطعته للألمان الذين وصلوا إلى بوردو. لكن ضباطه عارضوه في ذلك. ولهذا كان هذا المسار العمائي للقطار. وفي النهاية توقفنا في بيزيه.

د. ل. إذاً، لم تشترك في أية معركة؟

ك. ل. ش: كلا، باستثناء تحطم القرميد فوق رأسي بقذائف رشاشة من طائرة، أما أنا فلم أصب بأذى.

د. ل. ماذا فعلتم عند وصولكم إلى بيزيه؟

ك. ل. ش: عسكرنا على هضبة لارزاك. وهناك كنت كما لو أنني في بيتي. فأهلي يملكون منزلاً صغيراً في السيقين منذ عشر سنوات. فيما بعد، نزلنا في مونبوليه، ثم انهزمنا.

د. ل. وهناك، ماذا حدث؟

ك. ل. ش: قفزت عن حاجز التكنة، وذهبت إلى الإدارة التربوية عارضا خدماتي في حال احتاجوا إليّ في مادة الفلسفة، فامتحانات البكالوريا ابتدأت... وهكذا وصلت في الوقت المناسب، فقد سرّحت موفراً عناء أيام أخرى من الخدمة.

د. ل. وبقيت في مونبوليه؟

ك. ل. ش: كلا، انضممت إلى والديّ اللاجئين إلى منزلهما في

السيقيين. وهناك، تلقيت رسائل من الولايات المتحدة تدعوني للاستفادة من مخطط إنقاذ العلماء الأوروبيين الذي نظمته مؤسسة روكفلر. قبل ذلك، في أيلول 1940، ذهبت بسذاجة كلية إلى فيشي كي أطلب استلام وظيفتي في ثانوية هنري الرابع حيث تم تعييني. كانت وزارة التعليم العامة تشغل إحدى المدارس. استقبلني مدير التعليم الثانوي في قاعة صف اتخذها مكتباً له. وقال لي إنه -بالاسم الذي أحمله- لا يمكن أن يرسلني إلى باريس.

د. /: عندما ننظر إلى الوراء، تبدو سيرتك مدهشة. هل تكون الحالة أقل وضوحاً عندما يعيشها المرء؟

ك. ل. ش: سبق أن قلت لك إن المخيلة تنقصني دائماً، وهذا ما ساعدني خلال بعثاتي: فلم أكن أقيم اعتباراً للخطر. وهنا الأمر مماثل. لربما كان قدري قد تحدد في ذلك الوقت.

د. /: إذا، لم تكن خطورة وضع اليهود معروفة بعد؟

ك. ل. ش: إلا من البعض، وعلى الأقل من الموظف الكبير الذي استقبلني. لقد أردت العودة إلى باريس كي أقوم -ببساطة- بواجباتي الوظيفية.

د. /: وبماذا نصحك ذلك الموظف الذي منعك من الذهاب إلى

باريس؟

ك. ل. ش: أن أعود إلى السيقيين ريثما أتلقي تعييناً آخر. وبالفعل، بعد بضعة أيام، تمّ تعييني أستاذاً في إعدادية بيرينيان (هي اليوم ثانوية).

د.د.: وذهبت إليها؟

ك.ل.ش: بالتأكيد. ثم بدأت أفهم أن الأمور ليست على ما يرام فقد بدأ الحديث عن القوانين العرقية. وشكل موقف زملائي الجدد إشارة منذرة. فقد كانوا يتهربون من مناقشة هذا الموضوع معي. باستثناء أستاذ التربية البدنية، الذي حرص على أن يظهر لي وده: إنه مقاوم مقبل، دون شك. بعد حوالي خمسة عشر يوماً، تلقيت تعييناً جديداً في مونيوليه.. تسلمت صف فلسفة وصفاً مهنيًا تشبه جلبته ضوضاء حفارة أنفاق، فالطلاب المرشحون لدخول البوليتكنيك، لم يبالوا إطلاقاً بساعاتي الفلسفة المفروضة عليهم أسبوعياً. ولم يكونوا يعيرونني أي انتباه. فرضخت للواقع وبدأت أشرح الدروس في اللغظ...

د.د.: ... وكانهم ليسوا موجودين؟

ك.ل.ش: ... بالضبط، لكن هذه اللعبة الصغيرة لم تدم سوى ثلاثة أسابيع، فقد أصابتنى القوانين العرقية وعُزلت فرجعت إلى السيقين.

د.د.: كيف تم العزل؟

ك.ل.ش: عبر رسالة. وكان يحق لنا قبض راتب لمدة تتناسب مع سنوات الخدمة. وهذا ما أعال -والدي بعد رحيلي إلى الولايات المتحدة-.

قصارى القول، هاأنذا في السيقين حيث تمت المراسلة مع الولايات المتحدة.

د. /: هل قمت باتصالات مع الإثنولوجيين الأمريكيين قبل

ذلك؟

ك. ل. ش: نعم، مع ألفريد ميترو وهو سويسري استقر في الولايات المتحدة، ومع روبرت لوي الذي اهتم بعمله حول البورورو. من ناحية أخرى، كانت إحدى خالاتي (وهي أرملة هنري كارو - دولفاي) في الولايات المتحدة وبذلت أقصى طاقتها. وهكذا، وبفضل جهود كل هؤلاء تلقيت دعوة من «المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي».

د. /: ما هي هذه المؤسسة؟

ك. ل. ش: إنها مؤسسة يسارية - إذا كان لهذا التصنيف من معنى في الولايات المتحدة آنذاك - أصبحت بشكل ما جامعة للراشدين يؤمها الناس مساءً لإكمال تأهيلهم. فمُنذ وصول الفاشيين إلى السلطة في إيطاليا، ثم النازيين في ألمانيا، وضعت مؤسسة روكفلر مخططاً لإنقاذ رجال الفكر المهددين. وقد وسعته في ذلك الوقت باتجاه فرنسا. وكانت «المدرسة الجديدة» تخدم كمركز استقبال ومحطة فرز لمنح القادمين الجدد الوقت الكافي للانخراط في مؤسسات أخرى. لكن البعض كان يفضل البقاء فيها.

د. /: هل قررت الذهاب فور تلقيك الدعوة؟

ك. ل. ش: قررت ذلك بعد إخفاقي في العودة إلى البرازيل. وقد رويت في «المدارات الحزينة» كيف أن أحد مستشاري السفير منعه من منحني تأشيرة بعد أن كان راغباً بذلك.

د. /: لماذا كنت تفضل البرازيل؟

ك. ل. ش: لم أكن أفضل ذلك! كان هذا قبل تلقي الدعوة من الولايات المتحدة.

د. /: هل حصلت بسهولة على تأشيرة الدخول؟

ك. ل. ش: ليس ثمة ما هو أعقد من الهجرة إلى الولايات المتحدة. حيث يجب إنجاز كم كبير من المعاملات: يجب أن تثبت أنك صاحب مهنة، وأن تقدّم مؤسسة ما دليلاً على أنك ستذهب فعلاً للعمل فيها ويجب أيضاً إيجاد شخص مستعد لدفع كفالة كبيرة جداً.

د. /: ومن دفع لك هذه الكفالة؟

ك. ل. ش: إحدى الثريات الأمريكيات، وهي صديقة خالتي.

د. /: وقبل هذه المعاملات؟

ك. ل. ش: يجب الحصول على تأشيرة خروج من السلطات الفرنسية. لكن، على هذا الصعيد، ما من مشكلة: فقد كانوا -على العكس- سعيدين بالتخلص من أشخاص يعتبرون في وضع شائك، أما الأهم فهو إيجاد مركب.

د. /: ...وعلى هذا المركب...

ك. ل. ش: اسمه الكابيتين بول - لوميرل. وكان على متنه: أنا سيغير وأندريه بروتون وفكتور سيرج...

د. /: هل تعرفت عليهم خلال السفر؟

ك. ل. ش: تدريجياً. كنت أجهل وجود أندريه بروتون على متن المركب، وعرفت ذلك مصادفةً. فأثناء رسوّه في المغرب، لم يسمح إلا

للفرنسيين بالنزول إلى البر، وبينما كنت في الطابور لإبراز جواز سفري سمعته أمامي بالضبط يقول اسمه.

د. /: كان مشهوراً جداً آنذاك.

ك. ل. ش: نعم، تخيل إذا الصدمة التي شعرت بها. قدمت نفسي إليه وتعاطفنا.

د. /: هل كان ودوداً؟

ك. ل. ش: لا. ليس هذا بالضبط. إنه بالتأكيد دمث للغاية لكنه بمنتهى التكلف.

د. /: حتى وهو في تلك الحالة؟

ك. ل. ش: نعم، كان دائماً ذا مظهر رزين.

د. /: وفيكتور سيرج؟

ك. ل. ش: لقد ثرثرنا قليلاً، لكن لا أستطيع القول إننا أصبحنا أصدقاء. منذ عدة سنوات، رأيت في المكسيك ابنه الذي كان على المركب طفلاً.

د. /: كان مركباً ذا مكانة؟

ك. ل. ش: كان على متنه أيضاً أشخاص آخرون أصبحوا شهيرين فيما بعد. لقد رويت في «المدارات الحزينة» كيف تمّ حشر المسافرين في العنابر. أما أنا فقد كرموني بمنحي سريراً في إحدى القمريتين اليتيمتين باعتباري زبوناً قديماً للشركة خلال رحلاتي إلى البرازيل. شغل السرير الآخر شخص غريب قال إنه تونسي، وقد

أظهر لي ذات يوم لوحة لديفا يحملها في حقيبته. كان يتمتع بتسهيلات مميزة، فهو يروح ويجيء كما يشاء، ولم يكن يشكل له النزول من السفينة أثناء رسوها أية مشكلة. تذكرت اسمه: صماجه. لقد حيرني. وفيما بعد، عندما مات مؤسس جريدة «كومبا»(*) ونشرت الصحف صورته عرفته. ربما كان آنذاك بمهمة سرية أجهل لصالح من.

د. ل. ش. في ذلك الوقت أيضاً تعرفت على سوستيل.

ك. ل. ش. إنني أعرفه منذ عام 1936 عندما جلبت أول مجموعات من البرازيل. فبعد مغادرة المارتينيك ووصولي إلى بورتوريكو على متن قارب سويدي، افترضت السلطات الأمريكية أن أوراقني ليست نظامية. وتم وضعي تحت المراقبة في نزل قذر على نفقة الشركة الملاحية. وأثناء ذلك. وفي هذه الحالة المثيرة للحنق، وصل سوستيل إلى بورتوريكو كمبعوث للجنرال دوغول لاستمالة المستعمرة الفرنسية. حصلت على موافقة حراسي فقادوني إليه. وقد شرح للأمريكيين بهذيب بالغ أنني لست جاسوساً. ثم انتظرت بسلام إرسال وثائقي المطلوبة وذهبت إلى نيويورك على متن مركب نظامي.

د. ل. ش. ذكرت إقامتك في نيويورك، في نص أعيد نشره في

«النظرة البعيدة»⁽⁷⁾.

ك. ل. ش. في شقة صغيرة في غرينويتش فيلاج، في الزقاق الحادي عشر عند ركن الشارع السادس تقريبا. وقد عرفت فيما بعد

(*) كومبا: المعركة: جريدة يومية فرنسية تأسست سراً في باريس عام 1944. من بين المشاركين فيها: بيا، كامو، آرون، أوليفيه، بورديه (الذي تركها عام 1950 ليؤسس الأوبسيفاتوار) وأدارها منذ عام 1953 «صماجه».

أن كلود شانون مؤسس السيبرنيتيك كان يسكن آنذاك في المبنى نفسه.

د. ل.: ولم تلتق به أبداً؟

ك. ل. ش.: أبدأ. ذات يوم، قالت لي لاجئة بلجيكية مستأجرة أيضاً في المبنى نفسه - وكانت ما تزال موجودة فيه حتى عام 1972 حين ذهبت لرؤيتها ثانية - قالت لي إن أحد جيراننا يقوم «بصناعة عقل صناعي» وقد عرفت بعد عدة سنوات أنها كانت تقصد شانون.

د. ل.: إنه من المؤسف حقاً أنك لم تتعرف عليه.

ك. ل. ش.: إنه أمر مؤسف فعلاً. لكن، في ذلك الوقت، لم أكن سأفهم...

د. ل.: هل تحسنت لغتك الإنكليزية؟ لإعطاء دروس...

ك. ل. ش.: ... كلا، بقيت ضعيفة، لكنني وصلت في الربيع بعد انتهاء العام الدراسي. ذهبت لتقديم نفسي في «المدرسة الجديدة»، فقبل لي مباشرة «ليس من الوارد أن يبقى اسمك ليقي - شتراوس. هنا سيصبح اسمك كلود ل. شتراوس» سألت عن السبب فأجابوا: «سيجد الطلاب ذلك مضحكاً» بسبب الـ blue-jeans (*) وهكذا عشت في الولايات المتحدة عدة سنوات بكنية مشوهة.

منذ ذلك الوقت، لم يتوقف هذا التشابه التعيس في الأسماء عن إخجالي، وكان كالشبح! فلم تمض سنة دون أن ألتقى (من إفريقيا بشكل عام) طلباً على سراويل جينز. حوالي عام 1950. جاءني شخص

(*) شركة ضخمة لإنتاج الجينز.

قدّم نفسه تاجر أقمشة، اكتشف اسمي في دليل الهاتف السنوي، وعرض عليّ أن أجعل منه علامة تجارية لمعمل سراويل قيد الإنشاء. فرفضت محتجاً بوضعي غير المناسب لهذا النوع من المنشآت وأنا الجامعي والباحث فقال لي: لا داعي للقلق لأن المشروع لن يرى النور أبداً، ويكفي الحديث عنه فقط «فبدل أن تفقد الشركة الأصلية حصريّة اسمها ستغمرنا بالذهب كي لا نقيمه، ولن يكون علينا سوى قسمة المال» وقد رفضت بتهذيب.

منذ عدة سنوات كنت في بركلي بدعوة من الجامعة. وذات مساء، رغبت أنا وزوجتي بالعشاء في مطعم لم نكن قد حجزنا فيه مسبقاً. وكان ثمة طابور من المنتظرين، استعلم نادل عن اسمنا كي ينادينا عندما يحين دورنا. وما كاد يسمعه حتى قذف بهذا السؤال^(*) «the pants or the books?» إنها جملة ممتعة جداً بإيجازها، لذلك لا أترجمها.

يجب الشاء على ثقافة النوادل الكاليفورنيين، ففي باريس، عندما تشتري زوجتي من إحدى المحال تُسأل عن كنيّتنا الشهيرة بسبب السراويل لا بسبب الكتب أبداً...

د. إ. وبعد هذا التغيير في الهوية؟

ك. ل. ش: تم إرسالني إلى المنزل مع إعانة شهرية. وقضيت ذلك الصيف في كتابة «الحياة العائلية والاجتماعية» للنامبيكوارا باللغة الإنكليزية كي أتعلمها...

د. إ. لم ينشر هذا النص فوراً.

(*) «السراويل أم الكتب» بالإنكليزية في النص الأصلي.

ك. ل. ش: لا، لقد نشر في فرنسا عام 1948. وشكل أطروحتي التكميلية⁽⁸⁾.

د. إ: منذ وصولك إلى نيويورك ترددت على الأوساط السريالية في المنفى.

ك. ل. ش: لقد بقيت صديقا لبروتون. وقد أدخلني في حلقة السرياليين التي عثر عليها لتوه.

د. إ: كنت جامعياً شاباً غير معروف. وكنت تتواصل مع مجموعة فنانيين شهيرين. منهم بعض النجوم: بروتون، تانغي، دوشامب...

ك. ل. ش: وليونورا كارينغتون وماكس إرنست ودوروتيا تانينغ، ماتا، ويلفريدولام... كان ماسون وغالدير يسكنان في الريف. وقد ذهبت لزيارتهم في عطلة نهاية الأسبوع.

د. إ: هل تبادلتم الود مع أفراد المجموعة؟

ك. ل. ش: بشكل متفاوت. لقد تبادلتم الود سريعاً مع ماكس إرنست الذي بقيت الأقرب إليه. أما تانغي فيعجبني رسمه كثيراً، لكنه ليس شخصاً مريحاً. دوشامب لطيف جداً، ولفترة من الوقت أصبحنا -ماسون وأنا- صديقين حميمين. كما أقمت علاقة صداقة مع باتريك فالديبرغ استمرت بعد الحرب.

د. إ: كانت بيغي غوغنهايم تعيل هذه المجموعة؟

ك. ل. ش: كانت تساعد هذا أو ذاك مادياً، لكن ماكس إرنست -زوجها- كان ميسوراً أكثر من الآخرين، وظل يعيش حياة بوهيمية في

غرونويتش فيلاج حتى افترقا. ذات يوم، هتف لي بروتون ليطلب مني مبلغاً صغيراً كي يعيد شراء إحدى تحفه الهندية من ماكس إرنست الذي أصبح مفلساً. وهذه التحفة التاريخية موجودة اليوم في متحف الإنسان.

د. ل: هل كان كل هذا العالم الصغير يعمل كـ«هريق»؟

ك. ل. ش: كنا نلتقي ونلعب كثيراً «لعبة الصراحة». ونكتشف معاً مطاعم نيويورك الغريبة.

د. ل: ليس من السهل لعب «لعبة الصراحة» مع أشخاص مثل بروتون!

ك. ل. ش: كان ثمة حذر من الدخلاء: أنا وبيير لازاريف الذي يأتي أحياناً ودونيس دو روجمون أيضاً.

د. ل: ما الذي ربطك بلazarيف؟

ك. ل. ش: كنا -بروتون ودوتوي وأنا- نعمل في الإذاعة لرفد مواردنا في قسم يديره لازاريف في دائرة المعلومات الحربية وهي برامج موجهة إلى فرنسا. لقد وجدنا أنفسنا بين أناس من أوساط مختلفة لا تلتقي في الخارج إلا عرضاً. وهنا ربطتني صداقة مع دولوري فانييتي التي أغرم بها سارتر بعد عدة سنوات.

د. ل: ما الذي تضمنه عملك الإذاعي؟

ك. ل. ش: إن لدي خبرة قديمة في الإذاعة. فقد كانت إحدى نشاطاتي خلال سنوات دراستي، قراءة بيان المكتب الدولي للعمل، يومياً من إذاعة برج إيفل في أقبية القصر الكبير. ولهذا «رسمني»

أبي «مذيعا» في التزيينات الضخمة (30م على 5م) التي نفذها لجناح مدغشقر (البلد الذي لم يطأه أبداً) خلال معرض المستعمرات.

في نيويورك: كنا -بروتون ودوتوي ولوبييل وأنا- نتحاور بأربعة أصوات لقراءة النصوص الإخبارية والدعائية التي تخرج من مكتب لازاريف. وكانوا يعهدون إلي بخطابات روزفلت، لأن صوتي -كما يبدو- يمرر التشويشات بشكل أفضل.

د. /: كيف حصلت على هذا العمل في الإذاعة؟

ك. ل. ش: بواسطة باتريك فالديبرغ الذي سبق لي التحدث عنه. كان يعمل في الإذاعة أيضاً، وهو إضافة لذلك شاعر وناقد فني.. كتب عن ماكس إرنست ونشر كتباً جميلة حول حقبة 1900. أما في ذلك الوقت، فلم يكن أحد يتخيل أنه سيصبح -فيما بعد، في باريس- منسقاً في المعهد^(*)! كان يشرب ويعيش منفصلاً دون قواعد ويتردد على الحانات الصغيرة في هارلم حيث كان يصحبني أحياناً.

د. /: حسب نصك عن نيويورك، كانت إحدى نشاطاتك الرئيسية اقتناء التحف الفنية.

ك. ل. ش: لقد نبهنا ماكس إرنست، الشغيف بالفن البدائي، إلى بائع عاديّات ألماني اكتشفه في الشارع الثالث -الذي يختلف تماماً عما هو عليه الآن- وابتاع منه تحفة هندية، حيث لم يكن تداول هذه التحف شائعاً تجارياً آنذاك. لم تكن نملك الكثير من المال، فكنا إذا توفر مع أحدها بضعة دولارات سارع لشراء التحفة المطلوبة... أو

(*) المعهد: معهد فرنسا، وهو مجموع خمس أكاديميات: الأكاديمية الفرنسية، وأكاديمية الآداب، وأكاديمية العلوم، وأكاديمية الفنون الجميلة وأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. -المترجم-

أخطر الآخرين إذا كان مفلساً. وعندما لمس التاجر طلباً على هذه التحف بدأ يجلب المزيد منها فازدادت عنده شيئاً فشيئاً. كانت هذه التحف تأتي في الواقع من متحف كبير يتخلص مما يفترض أنه يمتلك عدداً مضاعفاً منه، وأنا أستطيع اليوم قول ذلك لأن هذه القصة نشرت سابقاً. وحالما عرف هذا التاجر أن هذه التحف رائجة تجارياً، قام بدور الوسيط بيننا وبين المتحف، وكم كان من الممكن إيجاد قطع مضاعفة!

د. ل: هل عرفتم ذلك آنذاك؟

ك. ل. ش: لقد عرفنا ذلك بسرعة. حتى أن التاجر قادنا - بالتواطؤ مع الحارس - إلى مخازن المتحف التي تشغل بناء معزولاً في ضاحية من ضواحي نيويورك. أصبحنا نختار ما نريد من التحف فنتبع في متجره بعد عدة أيام.

د. ل: ماذا حل بالتحف التي اشتريتها؟

ك. ل. ش: جلبتها إلى فرنسا. لكنني وقعت في مشاكل شخصية، واضطرت لبيعها إلى درو Dr00at عام 1950. وقد اشترى متحف الإنسان و«متحف «ليد» الكثير منها، كما اشترى بعضها أشخاص مميزون منهم لاكان ومالرو على ما أعتقد. ولم يبق لي منها سوى اثنتين أو ثلاث.

د. ل: هل استمرت علاقتك مع السرياليين بعد الحرب؟

ك. ل. ش: لا، باستثناء إرنست وبروتون وفالدبيرغ. عاد بروتون إلى فرنسا قبلي، فقد تم إرساله إلى نيويورك

كمستشار ثقافي عام 1945. وهكذا لم نلتق من جديد إلا بعد ثلاث سنوات. حيث كنا نذهب، بشكل طقسي، كل سبت إلى سوق الأشياء المستعملة مع العصاة الصغيرة من المخلصين له. كانت مرافقة بروتون في هذه المناسبة تمثل شرفاً عظيماً.

د. ل. ش: ألم تعانِ علاقتهما شرخاً ابداً؟

ك. ل. ش: ثمة حادثة أتحمل مسؤوليتها البريئة. طُلب من بروتون كتابة عمل تحت عنوان: الفن السحري. ونقصه الإلهام، فطرح (كما يتم غالباً في مثل هذه الظروف) استمارة تلقيتها مع الآخرين. إنني من المعجبين ببروتون وبعينه المعصومة عن الخطأ أثناء ارتياد محال السقاطين: فهو لا يفلت أية تحفة أو يتردد في تقييمها. لكن كلمة «السحري» بالنسبة لي تمتلك تعريفاً محدداً مأخوذاً من المعجم الإثنوغرافي وأنا لا أحب «رشها على كل الصلصات». وبدلاً من معارضة بروتون حول المبادئ فضلت عدم الرد. لكنه عاد إلى طرح ذلك من جديد. كنت آنذاك في السيقين أقضي إجازتي مع ابني (من زواجي الثاني) وعمره حينذاك سبع سنوات. كانت الاستمارة مرفقة بمجموعة نسخ عن تحف فنية ينبغي تصنيفها في «أكثر أو أقل سحراً». وبالرغم من معارضتي لهذا المشروع بدا لي من المثير معرفة رد فعل طفل حيال ذلك، واعتقدت أن بروتون سيهتم بذلك أيضاً.

قام ابني بالتصنيف دون تردد وبعثت ذلك إلى بروتون فأجابني برسالة جريئة. وقد نشر الكتاب محتوياً على إجابات ابني، لكن النسخة التي بعثها لي كانت مهداة إليه بجفاء.

د. ل. ش: ولم تلتقيا بعد ذلك؟

ك. ل. ش: توافقنا من جديد بعد فترة قصيرة. لكن علاقتنا لم تعد كما في السابق.

د. /: وماكس إرنست؟

ك. ل. ش: استمرت صداقتنا بعد نيوورك. ولم تحدث بيننا أية مشكلة أبداً. عندما دعاني الكوليج دوفرانس لإلقاء محاضرات مؤسسة لوبا - لم أكن في الكوليج دوفرانس بعد بل إنها الفترة التي رُفضتُ فيها - جاء ماكس إرنست للاستماع إلي. كنت أصف آلهة الهوبي معبراً عن أسفي لعدم تمكني من عرض صور على جهاز الإسقاط لإيضاح الموضوع. بعد أسبوع أحضر لي ماكس إرنست لوحة كبيرة لعرضها على اللوح ما أزال أحتفظ بها إلى اليوم. إن موقف إرنست من الإثنولوجيا مناقض لموقف بروتون. فهذا الأخير يرتاب فيها، ولم يكن يحب أن تتوضع اعتبارات معرفية بينه وبين التحفة. أما ماكس إرنست فيجمع التحف لكنه يريد أيضاً معرفة كل شيء عنها.

د. /: هل طبعك التردد على السرياليين بطابعهم؟ أقصد في عملك؟ ففي مقالة نشرت عام 1984 في ملحق التاييمز الأدبي، يقرب رودني نيدهام عملك من الأبحاث السريالية.

ك. ل. ش: بمعنى ما، أوافق على ذلك. فأنا والسرياليون نرتبط بالتقليد الفكري نفسه الممتد حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان بروتون شغفاً بفوستاف مورو وبكل تلك المرحلة الرمزية والرمزية الجديدة. لقد أولى السرياليون اهتماماً باللاعقلي وسعوا لاستثماره من وجهة نظر جمالية. إنني تقريباً أستخدم المادة نفسها، لكن بهدف محاولة إخضاعها للتحليل وفهمها مع الاحتفاظ كلياً بالحساسية إزاء جمالها.

إضافة إلى أن مناخ الحماس الفكري الذي سيطر على هذه المجموعة أفادني غالباً. فباحثي مع السرياليين أصبح حسي الجمالي أكثر غنى ورهافة. وجلّ التحف التي ربما كان لدي ميل لرفضها فيما سبق على اعتبارها غير مهمة، ظهرت لي تحت ضوء جديد بفضل بروتون وأصدقائه.

د. ل: قلت في نص من «النظرة البعيدة» إن كتابك «أسطوريات» تم بناؤه على شكل كولاجات^(*) ماكس إرنست.

ك. ل. ش: إن السرياليين هم الذين علموني ألا أخاف من المقاربات الفظة وغير المتوقعة كالتي التذّبها ماكس إرنست في كولاجاته. وهذا التأثير ملموس في «الفكر البري». لقد بنى إرنست أساطير شخصية بواسطة صور مقتبسة عن ثقافة أخرى: ثقافة الكتب القديمة للقرن التاسع عشر. كما جعل هذه الصور تقول أكثر مما تعنيه لو تمت رؤيتها بعين ساذجة. وقد قمت -أنا أيضاً- في أسطوريات بتقطيع المادة الأسطورية وأعدت تركيب هذه القطع كي أجعلها تفجر المزيد من المعاني.



د. ل: جاء أيلول / سبتمبر وبدأت دروسك في «المدرسة الجديدة».

ك. ل. ش: خلال الصيف أقمت علاقات مع زملائي الأمريكيين: ميترو -بالتأكيد- منذ وصولي ولوي الذي أدين له بجزء

(*) كولاجات: collages: أسلوب في التأليف (التشكيلي أو الموسيقي أو الأدبي) يقوم على إقحام العمل بعناصر متنافرة معه، مما يخلق تضادات غير متوقعة.

كبير من دعوتي. كان يعيش في بيركلي، لكنه يأتي إلى نيويورك من وقت لآخر. كما ذهبت لتقديم نفسي إلى بواس في مكتبه في كولومبيا، فالعرف في أمريكا أن يحتفظ الأساتذة المتقاعدون بمكاتبهم، وكانت هذه حال بواس منذ حوالي ثلاثين عاماً.

د. ل: هل تبادلنا الود مع ميترو؟

ك. ل. ش: نعم، وأصبح صديقاً عزيزاً.

د. ل: متى تعرفت عليه؟

ك. ل. ش: بعد عودتي من البعثة لدى النامبيكوارا وكنت على وشك العودة إلى فرنسا، أعلمني ميترو الذي كان يرأسني بشكل متقطع، أنه سينزل عند عودته من الأرجنتين لعد ساعات في سانتوس -ميناء ساوباولو- وأنا نستطيع أخيراً أن نتقابل. وقد تنزهنا خلال نصف نهار على طول شواطئ مقفزة تخيم فوقها ذكرى مسافري القرن السادس عشر.

د. ل: كان يعيش في نيويورك؟

ك. ل. ش: في واشنطن. لكنه كان يأتي كثيراً إلى نيويورك. وعندها يقضي ليلته في منزلي. حيث نقسم أدوات الفرش.

د. ل: كان شخصاً حميماً؟

ك. ل. ش: حميماً جداً، وفي الوقت نفسه عصابياً بعمق، ينتقل من حالات الشفق^(*) إلى الاكتئاب الأكثر سواداً، كان مسرفاً في العمل: فهو يشعر بالتعاسة إن لم يكتب طوال الوقت.

(*) الشفق: فرح مرضي.

د. /: ووظيفته؟

ك. ل. ش: عمل في مكتب الإثنولوجيا الأمريكية حيث تم إنجاز «دليل هنود أمريكا الجنوبية» الذي دُعيتُ على الفور للمشاركة فيه.

د. /: هل كان ذا أثر في تأهيلك؟

ك. ل. ش: في تأهيلي، لا. لم يكن ألفريد ميترو نظرياً، بل علامة وميدانياً ممتازاً. وهذا لا ينفي امتلاكه لفضول فكري كبير في ميادين أخرى. وأنا أدين له بمعلومات كثيرة جداً. لقد أقام هو أيضاً علاقة مع السرياليين في فترة سابقة، فقد كان قريباً من باتاي وليريس. فيما بعد كنا نلتقي كثيراً في باريس، حتى موته. هذا الموت الذي هزني كما هز أصدقاءه، وعندما أفكر فيه اليوم، تبدو لي حياته الخاصة تأقلماً تدريجياً باتجاه الانتحار.

د. /: قلت إنك ذهبت لمقابلة فرانتزيواس؟

ك. ل. ش: طلبت مقابلته منذ وصولي إلى نيويورك. كان معلم الإثنولوجيا الأمريكية. ويتمتع بسحر كبير. إنه عملاق لا نظير له من عمالقة القرن التاسع عشر، راكم عملاً مهماً ليس بحجمه فحسب بل بتنوعه أيضاً: أنثروبولوجيا فيزيائية، ألسنية، إثنوغرافيا، أركيولوجيا، ميتولوجيا وفولكلور. لم يكن شيء غريباً عنه... لقد غطى عمله كامل المجال الإثنولوجي. ومنه نشأت كل الأنثروبولوجيا الأمريكية.

د. /: شارك أيضاً في إنقاذ العلماء والفنانين الأوروبيين،

فجيمي إرنست، ابن ماكس إرنست، يروي في مذكراته أنه استطاع الدخول إلى الولايات المتحدة⁽⁹⁾ بفضل.

ك. ل. ش: لم تكن حياة بواس خالية من المشاكل. فأتساءل
الحرب العالمية الأولى بقي ألمانيا من أعماق قلبه وناضل ضد اشتراك
أمريكا في الحرب. وقد كلفته هذه المواقف عداوة العديد من زملائه
بعيد الحرب. أما أثناء الحرب العالمية الثانية فكان عجوزاً ومتقاعداً
منذ فترة طويلة لذلك لم يتعدّ تأثيره التأثير الأخلاقي. وقد عمل
بصفة شخصية لصالح مواطنيه الألمان. وكان بكل تأكيد -كواحد من
أوائل أعداء الأفكار العرقية raciste وأكثرهم إقناعاً- يشعر بألم من
كل ما يحدث في بلده الأصلي.

د. /: عندما قدمت إلى الولايات المتحدة، هل كنت قد قرأت كل

أعماله؟

ك. ل. ش: لا، لكنني عرفت بعضها. لقد استقبلني بواس بكل
لطف دون أي زيادة. فقد كنت بالتأكيد مجهولاً تماماً بالنسبة إليه.
لكنني رأيته ثانية فيما بعد. في البدء مع جاكوبسون، فلديهما
اهتمامات ألسنية مشتركة يتناقشان فيها غالباً. ذات مرة، دعانا بواس
-جاكوبسون وأنا- إلى العشاء في منزله في غرانتوود على الضفة
الأخرى من الهودسون. كان في قاعة الطعام صندوق رائع منحوت
ومزين بالرسوم جلبه من الهنود الكواكيوتل، الذين خصص لهم جزءاً
كبيراً من عمله. لقد أعجبني هذا الأثاث فقلت بتسرع: «إن العيش مع
هنود قادرين على صنع مثل هذه التحف يشكل تجربته فريدة».
فأجابني بجفاء: «إنهم هنود كالآخرين» إن نسبيته الثقافية لا تسمح
له بإقامة تراتبية قيمية *hierarchie de valeurs* بين الشعوب. كما أن
تزمته الفكري صارم جداً. بعد عدة أسابيع مرّ الدكتور ريفيه -اللاجئ
إلى كولومبيا- بنيويورك في طريقه إلى المكسيك فأقام بواس غداء
على شرفه.

د. /: كان ريفيه مديراً لمتحف الإنسان آنذاك؟

ك. ل. ش: نعم، كان أستاذاً في المتحف الطبيعي منذ 1928، وقد حوّل متحف الإثنوغرافيا في تروكاديرو إلى متحف الإنسان (في قصر شايبو) الذي تأسس بمناسبة المعرض العالمي عام 1937. لقد اضطر للهرب بعد أن قضى الألمان على شبكة المقاومة في متحف الإنسان، حيث تم إعدام واعتقال العديد من مساعديه، ولم يفلت هو نفسه إلا بصعوبة.

التقينا في نادي جامعة كولومبيا. وكان البرد قارساً. جاء بواس معتمراً قبعة قديمة من الفرو تعود على الأرجح إلى بعثاته عند الأسكيمو قبل ستين عاماً. وأذكر من المدعوين ابنته وعدة زملاء من الجامعة هم جميعاً من طلابه القدامى: روث بينيديكت، ورالف لينتون وآخرون. كان بواس فرحاً جداً، وخلال أحد الحوارات دفع الطاولة بعنف وسقط إلى الخلف. كنت جالساً قربه فسارعت لإنهاضه. واندفع ريفيه -الذي بدأ حياته طبيباً عسكرياً- لإنعاشه لكن دون جدوى: كان بواس ميتاً.

د. /: هل لعمله أهمية كبرى لديك؟

ك. ل. ش: بالتأكيد، فأنا أهتم بهنود الجانب الشمالي الشرقي الذين كتب عنهم الكثير. اليوم، أصبح شائعاً انتقاد بواس. حيث يعاب عليه افتقاره لفكر منظم، ونفوره من النظرية والطابع الفوضوي لعمله. لكن بواس كان يتصدى لكمية هائلة من المواد التي يجمعها بنفسه أو يجعل السكان الأصليين المتعلمين يجمعونها، فكان يتلقى نصوصاً مكتوبة بالعديد من لغات السكان الأصليين ويترجم كل ذلك بنفسه!

يعاب عليه أيضاً تبنيه لمواقف متناقضة، حسب الميدان الذي يعمل عليه.

بالنسبة لي، يبدو -على العكس تماماً- أن لهذا التنوع في الاهتمامات عند بواس الفضل الأكبر في غنى الإثنولوجيا الأمريكية خلال عصرها الذهبي: أي من التجريبية النقدية عند لوي إلى التشكلات الثقافية عند بينيديكت أو الاهتمام الذي أعارته مارغريت ميد للسيكولوجيا الفردية في علاقاتها بالثقافة... كل هذا كان موجوداً عند بواس. وأمكن لكل واحد من الأجيال التي أهلها استخلاص وجه من وجوه عمله وتطويره باستثناء كروبر الذي حاول الحفاظ على وحدة كل هذه الوجوه.

د. /: لابد أن اللقاء مع رجل كبواس أخاذ، فقد كنت آنذاك في طور التكوين.

ك. ل. ش: إننا ندين لبواس ببعض الأفكار الأساسية. فمثلاً كان الإنثروبولوجيون يعتبرون المنسب الدماغى (*) سمة ثابتة تفيد في تمييز الأعراق. إن بواس هو من أثبت في أعماله الإنثروبولوجية الفيزيائية أن المنسب الدماغى متعلق بتأثير الوسط. كما أثبت عبر دراسته لأجيال متتابعة من المهاجرين في الولايات المتحدة أن الفروق التشريحية التي تكون صريحة في البداية بين المجموعات العرقية تمحى تدريجياً. وينطبق الأمر نفسه على النظم الاختلافي لنمو الأطفال. وهكذا فإن نقد العرقية Raciome نشأ منه.

(*) المنسب الدماغى: منسب اثربولوجي إحصائي يقوم على قياس أبعاد القحف في الأعراق المختلفة. وأول منسب دماغى وضعه السويدي أندريه ريتزيوس، ويعبر عن العلاقة بين أكبر قطر عرضي للقحف وأكبر قطر طولي له. - المترجم -

كما أن عمل بواس الألسني ضخماً أيضاً. وربما كتب بواس من قواعد اللغات الأصلية -وهي تعد بالعشرات- ما لم يكتبه أي ألسني آخر. وتم بفضلله فهم أن من غير المجدي الرغبة في إرجاع قواعد اللغات الغريبة إلى نماذج هند - أوروبية.

وهو أيضاً من أوائل من أكد على مسألة أساسية بالنسبة لعلوم الإنسان وهي أن قواعد اللغة تعمل في مستوى لا واعي خارج كل مراقبة من المتكلمين بها، وبالتالي نستطيع دراستها كظواهر موضوعية ممثلة بهذا المعنى لأفعال اجتماعية أخرى. وقد طرح هذا المبدأ الأساسي عام 1911 في مقدمته الشهيرة لـ «دليل لغات الهنود الأمريكيين». لقد كتبت في بعض الأحيان أن سوسور هو أول من أكد على هذا المبدأ، لكن سوسور، في الواقع، لم يعبر عنه صراحة بل كان ينساب بشكل غير مباشر خلال أعماله.

وأخيراً، في مجال الفولكلور والميثولوجيا، راكم بواس كمية رائعة من المواد تعرضت للسخرية بشكل مخجل. لقد حث بواس أحد مخبريه على حصر طرق تحضير الطعام في قبيلته ثم ترجمها ونشرها كلها على أساس أن من السابق لأوانه الحكم على ما هو مهم منها. فلدراسة ثقافة غير معروفة أو معروفة قليلاً، قد تكون التفاصيل غير المهمة ظاهرياً هي الأكثر كشفاً لها.

لقد تعرضت هذه التفاصيل للاستهزاء، مع ذلك، أعطتني طرق تحضير طعام الكواكيوتل مفتاحاً لحل العديد من المسائل الميثولوجية بكشفها النقاب عن علاقات الانسجام أو التناظر بين المواد الغذائية، وهي علاقات ليست متعلقة بالذوق فقط.

ويبقى أن عمل بواس ليس سهل الاستخدام. بل ينبغي بذل جهد كبير لذلك لكنه ذو غنى لا مثيل له.

د. /: أقيمت بين 1941 و1945 علاقات مع كل الحلقة الإثنولوجية الأمريكية.

ك. ل. ش: نعم. لقد عرفت جيداً رالف لينتون وروث بينيديكت. كان كل منهما يدعوني إلى الغذاء ليحكي لي كل سيئات الآخر. كانا يكرهان بعضهما، وتلك فصول قصص كولومبيا.

د. /: وكروبر؟

ك. ل. ش: كان -مثل لوي- يعيش في كاليفورنيا ويأتي من وقت لآخر إلى نيويورك. إنه أمر غريب أن أشهد موت بواس، وأن أشهد تقريباً موت كروبر. فقد كان في باريس مع زوجته، دعوتها للعشاء في منزلي. وصباح يوم الدعوة بالذات هتفت لي السيدة كروبر لتخبرني أن زوجها مات ليلاً. لم تكن تعرف أحداً في باريس فسارعت إلى فندقها.

د. /: كانت المدرسة الإثنولوجية الأمريكية نشطة بشكل مميز.

ك. ل. ش: مثل المدرسة الإنكليزية. لكن الولايات المتحدة بلد كبير، ولذلك كان لديه الكثير من الإثنولوجيين مثلما لديه الكثير من كل شيء.

د. /: عودة إلى خريف 1941: بدأت دروسك في «المدرسة الجديدة».

ك. ل. ش: تم تكليفي بإعطاء دروس حول السوسيولوجيا المعاصرة لأمريكا اللاتينية (ففي تلك الفترة، بدأت سياسة حسن الجوار) ولم يكن لدي أدنى فكرة عن هذا الموضوع، باستثناء البرازيل.

لذلك بدأت أذهب يومياً إلى مكتبة نيويورك العامة لأتعلّم الوقائع الاجتماعية والحياة السياسية للأرجنتين والبيرو وبلدان أخرى..

د.د. /: ومستمعوك؟

ك.ل. ش: كما عند بقية زملائي أغلبهم لاجئون ليست لغتهم الإنكليزية أفضل حالاً منّا، ونيويوركيون يأتون كي يتثقفوا. وكان هذا أشبه بجامعة شعبية. لقد درّست عدة سنوات، حول أمريكا اللاتينية المعاصرة. خلال شتاء 1941 - 1942 تأسست «المدرسة الحرة للدراسات العليا» في نيويورك. وبدأت بالتدريس فيها باللغة الفرنسية لمواضيع إثنولوجية أختارها بحرية.

د.د. /: قمت إذاً بالتدريس في المكانين في الوقت نفسه؟

ك.ل. ش: نعم.

د.د. /: كيف تأسست هذه المدرسة؟

ك.ل. ش: أعتقد أنها فكرة بوريس ميركين - غوتيزيفيتش. وهو حقوقي من أصل روسي يبدو أنه لعب دوراً في بداية الثورة الروسية ضمن معسكر الليبراليين. ثم ترك روسيا ليلجأ إلى فرنسا وحصل على الجنسية الفرنسية. كنت -في نيويورك- صديقاً حميماً لابنته فيتيا هيسيل التي ماتت منذ فترة قريبة. كانت تكتب، وقد أتت «الآزمة الحديثة» على نشر قصة قصيرة لها.

عودة إلى ميركين - غوتيزيفيتش. كان يمتلك فكراً خصباً. ويجب تأسيس كل أشكال المنظمات تحت حماية بعض الشهرة مكثفياً بمنصب نائب الرئيس، لكنه يبقى المدير الفعلي. وهو يعرف أكثر من

أي شخص آخر كيف يحصل على التأييد. يوجد في اللغة الإنكليزية كلمة تصف بدقة هذا النوع من البشر، إنها كلمة *go-between* وهي صعبة الترجمة لأنها تحمل وجهين: فهي تفيد المدح، لكنها لا تخلو من التهكم. لقد جمع غويتزيفيتش حول مشروعه مجموعة من الشخصيات الشهيرة: جاك ماريتان، هنري فوسيون، جان بيران، والبيزانطوي البلجيكي هنري غريغوار، وآخرون..

د. ل. ش: من كان يموله؟

ك. ل. ش: بعض مشجعي الفنون، وفرنسا الحرة. وساعده الأمريكيون في حل بعض المشاكل الإدارية والعملية.

د. ل. ش: أين كان مقر المدرسة؟

ك. ل. ش: ملاصقاً للمدرسة الجديدة. في الشارع الخامس، عند زاوية الجادة الحادية عشرة تقريباً.

د. ل. ش: وتم استدعاؤك إليها فوراً؟

ك. ل. ش: نعم، عبر ميركين - غويتزيفيتش الذي أراد أن يجعلني الأمين العام لها. لكن الكسندر كويريه رغب بهذا المنصب. كانت علاقتنا جيدة فانسحبت.

د. ل. ش: وكويريه هو من قدمك إلى جاكوبسون الذي تم استدعاؤه أيضاً لإعطاء دروس فيها.

ك. ل. ش: لقد تكهن بوجود نوع من وحدة الفكر بيني وبين جاكوبسون.

د. /: هل كان ذلك اللقاء بالنسبة لك حاسماً؟

ك. ل. ش: وكيف! كنت آنذاك بنيوياً سليم الطوية، أمارس البنيوية دون أن أعرف ذلك. وقد كشف لي جاكوبسون عن وجود مذهب سبق أن تأسس، ولم أمارسه من قبل: إنه الألسنية. وكان ذلك بالنسبة لي إبهاراً.

د. /: ... وبداية صداقة عظيمة؟

ك. ل. ش: الأمران معاً. شعرنا مباشرة أننا قريبين فكرياً، وقدّر لنا أن نصبح صديقين. هل حدث سوء فهم في البداية؟ لقد روى جاكوبسون أنه قال لنفسه عندما رأيته «أخيراً ها شخص يمكنني أن أشرب معه طوال الليل». فيما بعد اتضح له أنني لا أحب الكحول ولا السهر. ورغم ذلك بدأت بيننا صداقة أخوية مع أنه يكبرني بأثني عشرة سنة.

د. /: صداقة لم تتوقف أبداً.

ك. ل. ش: صداقة دون تصدّع استمرت أربعين عاماً. إنه رباط لم ينقطع، وبالنسبة لي إعجاب لم يتوقف مطلقاً. قبل أيام من موته، تلقيت منه نسخة خاصة لأحد مقالاته مع هذا الإهداء: «إلى أخي كلود».

د. /: كيف كان جاكوبسون؟

ك. ل. ش: كان ذا قوة فكرية تسيطر على كل من حوله، يتقن عشرات اللغات، وهو علامة مذهل يمتد علمه من اللغات الهندية القديمة إلى هسرل... يهتم بكل شيء: بالرسم والشعر الطليعي والإثنولوجيا والمعلوماتية والبيولوجيا...

د. /: هل كان إثنولوجياً في شبابه؟

ك. ل. ش: لقد بدأ حياته المهنية، وهو مراقق تقريباً، بأبحاث حول الفولكلور في منطقة موسكو مع بوغايتريف الإثنولوجي الروسي الكبير. وانتسب أيضاً إلى الحركة الحداثية للرسامين والشعراء الروس.

د. /: فيما بعد، أصبحت تراه كثيراً في باريس.

ك. ل. ش: بشكل منتظم كلما جاء إلى فرنسا، وهو يحب السفر حباً جماً! في الخمسينات، كنا نسكن -أنا وزوجتي الثالثة مونيك- في شقة صغيرة في بداية جادة سان - لازار، قرب كنيسة نوتردام دولوريت. لم تكن نستطيع إيواءه فكنا نستأجر له غرفة في فندق مجاور. كانت إقامته بيننا تمنحنا سعادة كبيرة وقليلاً من الخوف أيضاً، فنحن لا نمتلك مثل مقاومته الجسدية أو حيويته الفكرية: يدق الباب الساعة الثامنة صباحاً من أجل الإفطار، يقضي النهار معنا، ويبقى أحياناً حتى منتصف الليل وهو يناقش.

فيما بعد تمت تسوية ذلك. فقد عرفته على لاكان -صديقي الحميم آنذاك- وكما توقعنا فقد سحره وسيلفيا زوجته. كان لدى آل لاكان شقق مشتركة في شارع «ليل» وقبل اقتراحه بإيواء جاكوبسون عندما يأتي إلى باريس. وهكذا -لعدة سنوات- أصبح لجاكوبسون «غرفته» عند سيلفيا لاكان.

د. /: في نيويورك، كان يعطي دروساً في المدرسة الحرة.

ك. ل. ش: كانت دروسه إبهاراً. فهو يحاضر باللغة الفرنسية بطلاقة، ودون مدونات تقريباً. حيث يكتفي برزمة صغيرة من

البطاقات ينظر إليها من وقت لآخر. كما أن إلقاءه مؤثر بشكل لا مثيل له، وهو يثير مستمعيه، يمنحهم شعوراً مقنعاً بأنهم يعيشون لحظة حاسمة في تاريخ الفكر.

د. /: حول ماذا كانت تدور دروسه؟

ك. ل. ش: تم نشر دروسه منذ عدة سنوات بعنوان «سنة دروس حول الصوت والمعنى»⁽¹⁰⁾. وبما أنني كنت قد استمعت إليها سابقاً، فقد كتبت تقديماً لها بناء على طلبه.

د. /: هل كان يحضر دروسك؟

ك. ل. ش: كنت أعطي دروساً حول مسائل القرابة فيأتي للاستماع إلي، وقد قال لي ذات يوم: يجب كتابة كل هذا. لم أفكر بذلك من قبل. وهكذا بدأت -بتشجيع منه- كتابة «البنى الأولية للقرابة»⁽¹¹⁾ عام 1943 وأنهيته عام 1947.



د. /: كنت تعطي دروساً، وتكتب... كيف نظمت وقتك؟

ك. ل. ش: صباحاً، أذهب إلى مكتبة نيويورك العامة (فما أعرفه عن الإثنولوجيا اكتسبته خلال تلك السنوات) وأبقى فيها منذ افتتاحها حتى الثانية عشرة أو الواحدة ظهراً. ثم أتناول طعامي في إحدى الحانات وأعود إلى البيت كي أكتب.

د. /: لابد أن المكتبة العامة في نيويورك مكان مدهش؟

ك. ل. ش: كان يؤمها كثير من الناس وقلة من الجامعيين: فهؤلاء يفضلون مكتبة كولومبيا، أما أنا فأثرت المكتبة العامة لأنها

أقرب إلى منزلي. كما أن للمكان هيبة كبيرة، وهو بالـ قليل كمعظم المنشآت النيويوركية القديمة، لكنه مليء بالسحر.

د. /: غير أن فيها ذخيرة إثنولوجية كبيرة؟

ك. ل. ش: نعم. فحتى هذه المكتبة غير المتخصصة تمتلك ذخيرة غنية جداً في متناول الجميع. وفيها وجدت الجزء الأكبر من المصادر التي استخدمتها في البنى.

د. /: هذا انتقاد يوجه إليك عامة : قرأت الكثير من الكتب لكن

عملك الميداني قليل.

ك. ل. ش: إن الظروف هي من قرر ذلك. فلو حصلت على تأشيرة إلى البرازيل عام 1940، لعدت إلى أماكن بعثاتي ما قبل الحرب ومارست فيها عملاً ميدانياً. ولولا الحرب، لتم -ربما- إفادي من جديد. لقد قادني القدر إلى الولايات المتحدة حيث لم يتح لي الوضع القيام بعمل ميداني بسبب نقص الإمكانيات وبسبب الظروف الدولية. لكنه أتاح لي -بالمقابل- حرية كاملة للقيام بعمل نظري، فإمكانيات ذلك غير محدودة.

كنت أعلم أيضاً أن المواد الإثنولوجية تراكمت بكميات كبيرة في السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة. لكن ضمن فوضى هائلة. بحيث أصبح من غير الممكن معرفة من أين نبدأ وكيف نستفيد منها. وقد بدا لي ملحاً بيان ما تحمله هذه الكمية الكبيرة من الوثائق. وأخيراً، لماذا لا أعترف؟ لقد شعرت بسرعة كبيرة أنني رجل مكتب أكثر مما أنا رجل ميدان. وسأقول دون قصد التحقير -بل العكس تماماً- إن العمل الميداني هو إلى حد ما «عمل النساء» (وهذا سبب محتمل لكونهن ناجحات فيه) أما أنا فينقصني الصبر والأناة.

د. /: على الرغم من الأخطار التي ذكرناها، يبدو أنك استمتعت كثيراً بالعمل الميداني؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. كانت تلك أولى بعثاتي. ولست متأكداً من عدم الشعور بسخط متزايد -لو كان ثمة بعثات لاحقة- من اللاتناسب بين الوقت المستثمر فعلاً والوقت الضائع، ولقد ازداد ذلك سوءاً مع الوقت. فمنذ عدة أيام وصلتي من كندا أسئلة واستمارات وأشياء أخرى. يجب تعبئتها -حالياً- على عدة نسخ قبل أن تسمح لك «عصابة» (هذا هو الاسم الرسمي) من هنود كولومبيا البريطانية بالذهاب للعمل بينها. ولن يروي لك المخبر أسطورة إلا بعد أن يحصل على ضمان مكتوب بأنه سيحصل على حقوقه الأدبية مع كل النتائج القانونية المترتبة عن ذلك. لنعترف بأن هذه البيروقراطية الدقيقة وهذا الميل للورقية -كاريكاتير أعرافنا الخاصة- قد جردا العمل الميداني كثيراً من إغراءاته القديمة!

د. /: هل شعرت أيضاً بالانطباعات التي وضعها مالينوفسكي في يومياته؟ تلك المشاعر من السخط بل القرف؟

ك. ل. ش: تماماً. ولقد تظاهر الإثنولوجيون بالاستياء عندما نُشرت، مدعين أنها تناقض العمل. لكن من منّا لم يعيش لحظات من الاكتئاب؟ لقد كان ميترو (الذي قام بأعمال ميدانية واسعة) يذكر ذلك بعفوية وطيب خاطر. فإذا أضاع المرء خمسة عشر يوماً بين مجموعة من السكان الأصليين دون أن ينجح في معرفة أي شيء منهم لأنهم - ببساطة- انزعجوا منه، فإنه عندئذ سيبدأ بكرههم.

د. /: هل حدث هذا معك؟

ك. ل. ش: كم مرة، في السهوب القاحلة وسط البرازيل، تكون

لدي انطباع بأنني أبدد حياتي! عودة إلى ما كنت تقوله منذ قليل. لقد قمت -دون مقارنة بمالينوفسكي بالطبع- بأعمال ميدانية أكثر مما يؤكد منتقديّ، وهي كافية لكي أتعلم وأفهم ما هو العمل الميداني، وهذا شرط ضروري لتقييم أعمال الآخرين واستخدامها بشكل صحيح. لنقل إن تجاربي الميدانية مثلت ما يسميه التحليل النفسي «تعلّماً» didactique. وأعتقد أنني في الوقت نفسه قمت ببضعة اكتشافات وأتيت بأشياء جديدة.



د. ل: هل قمت، في نيويورك، بنشاط سياسي؟ هل خالطت مثلاً
الأوساط الديغولية؟

ك. ل. ش: لقد تطوعت في القوات الفرنسية الحرة. وتم الاحتفاظ بي فيما سُمي «البعثة العلمية الفرنسية» في الولايات المتحدة. عندما مرّ سوستيل بنيويورك أصر - بشكل ودي - أن أتبعه إلى لندن، وحالت دون ذلك رغبتني بالدراسة. وبالكتابة أيضاً. لقد حضرت عدة اجتماعات ديغولية، لكنني لم أكن من الفاعلين.

د. ل: هل توقفت هنا نشاطك السياسي؟

ك. ل. ش: لقد انسلّ بالأحرى.

د. ل: ثم، في يوم جميل، سمعت بإنزال الحلفاء في النورماندي.

ك. ل. ش: أذكر ذلك اليوم. كنت في شقتي في غرينويتش فيلاج، عند استيقاظي أدرت مذياعي الصغير فسمعت الأخبار. كان ما سمعته غريباً إلى حد أنه بدا للوهلة الأولى غير معقول. وشيئاً فشيئاً فهمت فأنفجرت بالبكاء.

د. /: هل طالبت بعودتك إلى فرنسا بعد التحرير؟

ك. ل. ش: لم تجر الأمور على هذا النحو تماماً. لقد استقال كويريه من منصبه كأمين عام للمدرسة الجرة، بعد نشوب صراعات فيها. فالأساتذة الذين ازداد عددهم كثيراً انقسموا إلى فريقين. الأول يتألف من الذين اعتبروا أنفسهم فرنسيين بشكل كامل، ولم يكن لديهم إلا فكرة واحدة في رؤوسهم: العودة إلى فرنسا واستعادة مهنتهم. وقد رأوا أن المدرسة لم يعد لها مبرر للوجود بعد الحرب، وبالتالي يجب حلها. أما الفريق الثاني فيتألف إما من متجنسين حديثاً أو أجنب لجؤوا إلى فرنسا قبل الحرب، وكانوا غير مطمئنين لمصيرهم ويتساءلون ماذا سيحدث لهم في حال عودتهم إلى فرنسا؟ لذلك كانوا يفضلون الانتظار وبقاء المدرسة التي تحافظ على روابطهم بفرنسا وتتيح لهم في الوقت نفسه البقاء بأمان في الولايات المتحدة. كان كويريه يشعر بفرنسيته بحرارة لكنه لم يود أن يتحيز لأحد الفريقين. ولقد خلفته ممثلاً للمعسكر الأول.

كانت هذه المشكلة معروفة جيداً في فرنسا، فهنري لوجييه الذي تم تعيينه مديراً للعلاقات الثقافية كان هو نفسه لاجئاً في كندا. وقد استدعاني لمحاولة إيجاد حل. فعدت إلى باريس بعد سفر قاسٍ في قافلة للبحرية الأمريكية (لم تكن الحرب قد انتهت تماماً بعد). وتم إنزالنا في ميناء إنكليزي لا أعرفه، ثم وصلت إلى لندن حيث كانت تسقط بعض صواريخ الV2 الألمانية، ثم إلى ديب، ومن هناك إلى باريس في شاحنة أمريكية. كان ذلك في بداية كانون الثاني / يناير عام 1945. وبوصولي إلى باريس، شغلت مكتباً صغيراً في إدارة العلاقات الثقافية التي اتخذت من فندقٍ مقراً لها (ليس فندقاً مميزاً بل فندقاً قديماً مفروشاً) في جادة لورد - بيرون قرب الشانزليزيه.

د. /: ما المنصب الذي شغلته؟

ك. ل. ش: لم يكن لي أي منصب سوى الأمين العام للمدرسة الحرة للدراسات العليا في نيويورك.

د. /: ومهنتك؟

ك. ل. ش: استقبل الأشخاص الراغبين بزيارة الولايات المتحدة. ولم أحتفظ من تلك الفترة إلا باثنتين من الذكريات المميزة. فهنا، جددت معرفتي بميرلو - بونتي.

د. /: ألم تره منذ دورة الأستاذية؟

ك. ل. ش: أبداً.

د. /: كيف كانت هذه اللقاءات مع ميرلو - بونتي؟

ك. ل. ش: جيدة جداً. وبما أنني كنت أجهل كل شيء تقريباً عما يجري في فرنسا، فقد سألته: ما هي الوجودية؟ فأجابني: إنها محاولة لإحياء الفلسفة العظيمة ضمن تقليد ديكرت وكانط.

د. /: وهل تناقشت معه حول ذلك؟

ك. ل. ش: لم أكن متابعاً لهذا الجو. بل إنني لم أكن قد قرأت «الوجود والعدم».

د. /: والذكرى الثانية؟

ك. ل. ش: استقبلت أيضاً جانين ميشو المغنية الشهيرة آنذاك. لقد قدمت إلى مكثبي غارقة في العطر جارة معها اثنتين من الكلاب الضخمة.

الفصل الرابع

العودة إلى العالم القديم

د. ل: لم تبق في باريس إلا عدة أشهر، ثم عدت من جديد إلى نيويورك...

ك. ل. ش: ... كمستشار ثقافي. أراد لوجييه تعييني في المكسيك. لكنني كنت بصدد كتابة «البنى الأولية للقرابة» وبحاجة ماسة إلى المكتبات الأمريكية. لذلك أصررت على أن يجعلني أخلف هنري سيريج في نيويورك. كان هنري سيريج صديقاً حميماً وأراد أيضاً أن أخلفه.

د. ل: هل هو والد الفنانة؟

ك. ل. ش: نعم، هو والد دلفين، التي كنت أراها صغيرة عند والديها. إنه أركيولوجي ذائع الصيت، أصبح فيما بعد مديراً لمتاحف فرنسا. لقد أفلحت جهودنا - هو وأنا - في إقناع لوجييه بتعييني في نيويورك.

د. ل. متى عدت إليها؟

ك. ل. ش: في ربيع 1945.

د. ل. ماذا تضمنت نشاطاتك؟

ك. ل. ش: بشكل رئيسي تهيئة المبنى!

د. ل. الحالي؟

ك. ل. ش: لا، بل المبنى الحالي للقنصلية العامة. كانت فرنسا تمتلك قبيل الحرب -في الشارع الخامس- فندقاً رائعاً مميزاً بناه مصرفي أمريكي على شكل قصر روماني. وقد منع عمدة نيويورك -وهو مناهض قوي لحكومة فيشي- ممثلي فرنسا من دخوله، إلى أن تسلم دوغول السلطة. لم يكن المبنى يتناسب مع احتياجات الخدمات الثقافية، فأُسند إليّ مع مهمة تهيئته. وقد رغب جاك كارلو (مصمم قصر شايو) اللجوء إلى الولايات المتحدة في مساعدتي. وهكذا قمنا بترميم كل الداخل.

د. ل. كان ذلك عملاً ضخماً؟

ك. ل. ش: نعم، لكنه ممتع أكثر بكثير من عملي كمستشار ثقافي. فالبحث عن أفكار والقيام بتصاميم والمشاركة في حياة الورشة ووضع اليد أحياناً في الطين، كل هذا يسحرني.

د. ل. وكان عليك القيام بمهامك كمستشار ثقافي أيضاً!

ك. ل. ش: بالتأكيد! لكنني استفدت من بعض التساهل نظراً لظروف العمل.

د. /: وفي نيويورك، هل عاودت رؤية أصدقائك؟

ك. ل. ش: كانت أوساط المهاجرين قد بدأت بالتبعثر، لقد أقمت -فيما مضى- علاقات طيبة مع مجموعات منهم، لا تتقاطع إلا جزئياً: السرياليين والجامعيين، إضافة إلى المحليين النفسيين حيث كنت ألتقي غالباً بلوفنشتاين وكريس ونانبيرغ عند ريمون دو سوسور (ابن الألسني الكبير) بل إنني التقيت مرة بماري بونايرت. أما عملي كمستشار ثقافي فكان يوجهني باتجاه وسط آخر هو وسط الأثرياء الأمريكيين أصدقاء فرنسا. فأنكشف أمامي مجتمع نيويورك مختلف.

د. /: بقيت ثلاث سنوات؟

ك. ل. ش: عدت إلى باريس في نهاية عام 1947.

د. /: خلال تلك الفترة زار سارتر الولايات المتحدة.

ك. ل. ش: نعم، لكنه لم يكن بحاجة إليّ لتنظيم إقامته. ولقد تناولنا الطعام وحدنا مرة واحدة فقط.

د. /: ألم تكن تعرفه؟

ك. ل. ش: إطلاقاً. لمحتة مرة عندما كنت أ حضر الأستاذية، فقد كنت أتابع دروساً في المدرسة العليا لإعداد المعلمين وأشار أحدهم إليه صارخاً «هذا سارتر». منذ ذلك الوقت أصبح شيئاً مهماً معرفة من هو سارتر!

د. /: في نيويورك، رأيت أيضاً سيمون دو بوفوار.

ك. ل. ش: جاءت بعد فترة قصيرة. ولم تكن -هي أيضاً-

بحاجة للخدمات الثقافية للسفارة. لكننا التقينا نظراً لمعرفتي القديمة بها. فقد دعوتها للغداء في منزلي، وأذكر جيداً الامتعاض الذي نظرت فيه إلى مهد ابني الوليد حديثاً: في الواقع، إن طفلاً رضيعاً لم يكن الشيء الذي يجب إظهاره لها!

د. ل. ش: أعتقد أنك استقبلت كامو أيضاً؟

ل. ش: كان بحاجة كبيرة للخدمات الثقافية. أخذته في نزهة داخل المدينة، ثم اصطحبته للعشاء في شيناتاون... وقضينا سهرة في ملهى لوير برودواي الذي كان يقدم -بشكل ساخر- عروضاً لمغنيات مسنات. إن المهرجة هي ظاهرة أمريكية نموذجية يجب التعرف عليها، لكنها تثير اشمئزازي.

د. ل. ش: هل استقبلت شخصيات أخرى؟

ل. ش: جول رومان. لكن في تلك المرحلة، كنت ما أزال مبدئياً. لقد نشر قبيل الحرب كتاباً مريباً بعيداً جداً عن «ذوو الإرادة الصلبة» الذي قرأته بحماس شديد. كما أن استقباله لم يتم عبر الخدمات الثقافية للسفارة بل عبر منظمات فرانكو - أمريكية، لم تكن موافقها خلال الحرب نظيفة تماماً. ولقد دعيت إلى إلقاء خطاب فوجئت له فيه أشياء مزعجة. حيث امتدحت «ذوو الإرادة الصلبة» وذكرت بأن بطليه -جالي وجيرفانيون- اللذين كان جيلي ما يزال قريباً منهما، تعاهدا على عدم الدخول أبداً إلى الأكاديمية الفرنسية (كانت الأكاديمية قد انتخبت جول رومان منذ فترة قصيرة). لقد أورد أندريه مورو الذي حضر هذا التجمع ذلك الخطاب اللاذع في مذكراته.

كما استقبلت أيضاً بعثة الأطباء الشباب وفي عدادهم السيد إيف لا بورت المدير الحالي للكوليج دو فرانس. واستقبلت أيضاً جان دولاي الذي سَأصبح زميله في الأكاديمية. وغاستون بيرجيه الذي سيصبح فيما بعد مدير التعليم العالي.

د. ل. : والد موريس بيجار؟

ك. ل. ش: بالضبط... كان غاستون في ذلك الوقت، حسب اعتقادي، أستاذاً في ايكس. عندما وصل كنت أحزم حقائبي. فاعتذرت عن سوء استقبالي وشرحت له أنني على أهبة الرحيل. فأجابني: «أعرف، أنت ذاهب إلى الكوليج». وكما سبق أن قلت لك، كنت أجهل تقريباً ما هو الكوليج دو فرانس: فهو مكان مرعب، محظور، لم أسمح لنفسني عندما كنت طالباً بالدخول إليه. ولذلك لم أعر أي اهتمام لعبارة غاستون بيرجيه تلك. لكن، منذ وصولي إلى باريس، أعلمني لوجييه الذي كان يحبني جداً أن هنري بيرون يريد رؤيتي. أنت تعرف من هو بيرون: عالم نفس شهير، شيوعي، وأستاذ في الكوليج. اتفقنا على موعد للقاء. وقد قال لي: «في نيتنا أن ندخلك إلى الكوليج» لم أكن أعرف من هم هؤلاء الـ«نحن» لكنه بدا واثقاً من نفسه. ففكرت أن كل شيء ترتبه لي قوى خفية، وما عليّ سوى أن أسلم لها قيادي.

لقد عشت ثلاثة عشر عاماً خارج فرنسا ولم أكن أعرف أنني سأغدو رهاناً في معركة عصبوية داخل الكوليج بين المحافظين والليبراليين. أخفقتُ، وهذا أمر غير مفهوم لكل من يعرف تقاليد الكوليج. وبعد عدة أشهر، عندما شغل كرسي آخر تم تشجيعي على التقدم من جديد وأخفقتُ أيضاً.

د. ل. ش: متى حدث هذان الحدثان المؤسفان؟

ك. ل. ش: 1949 ثم 1950.

د. ل. ش: في تلك الفترة تم انتخاب دوميزيل رغم كراهية إدمون

فارال -مدير الكوليج- له.

ك. ل. ش: لقد أخبرني فارال ببرود أنني لن أدخل إلى الكوليج أبداً ولم تفلح الجهود المشتركة لدوميزيل وباتايون وبنفينيست في جعله يعيد عقد اجتماع الانتخاب. لقد حدثك عن محاضرات لوبا أثناء كلامنا عن ماكس إرنست: فبمفارقة غريبة، دعيت لإعطاء سلسلة من المحاضرات في الكوليج في الوقت نفسه الذي أخفقت فيه. لقد حضر دوميزيل هذه المحاضرات. وهي المناسبة التي تعرفت فيها عليه بشكل حقيقي.

د. ل. ش: ثم بقيت عشر سنوات قبل أن تتقدم للكوليج من جديد.

وهذه المرة ستكون الصائبة.

ك. ل. ش: لقد كنت الساذج، الذي هرع دون علمه إلى قلب معركة بين القدامى والحديثين: ضمت العصابة السلفية أناساً ينتمون بفكرهم وعجرفتهم إلى عصر آخر. ويجب القول إن هذه الصراعات بدأت بالإمحاء منذ تولي مارسيل باتايون إدارة الكوليج خلفاً لفارال. وبعدها، وخلال اثنتين وعشرين سنة تحت إدارة باتايون وخلفائه، لم أرها تحدث من جديد نهائياً. بعد هذا الإخفاق المزدوج اقتنعت بأنني لن أنجح في بناء مستقبل مهني. فقطعت صلاتي بالماضي وأعدت بناء حياتي الخاصة وكتبت «المدارات الحزينة» الذي لم أكن لأجرؤ أبداً على نشره لو انخرطت في أية منافسة على منصب جامعي.

د. /: في نيويورك، وضعت اللمسات الأخيرة على «البنى الأولية للقريبة».

ك. ل. ش: قمت بتسوية مع لويس جوكس -مدير العلاقات الثقافية بعد لوجييه- الذي سمح لي بالعمل مستشاراً ثقافياً نصف الوقت: صباحاً في المكتب، وبعد الظهر في منزلي كي أكتب. كنت أسكن مع زوجتي الثانية في الطابق الأخير للمبنى وأنزل إذا احتاجوا إلي. وبهذه الطريقة استطعت إنهاء كتابي.

د. /: قدمته كأطروحة جامعية عندما عدت إلى باريس.

ك. ل. ش: نعم، قدمته كأطروحة رئيسية. وقدمت «الحياة العائلية والاجتماعية للنامبيكوارا» كأطروحة تكميلية.

د. /: كيف تشكلت لجنة الحكم؟

ك. ل. ش: ذهبت لرؤية دافي -عميد السوربون آنذاك- متأبطاً مخطوطي كي أطلب منه الإشراف على الأطروحة (إذا أمكن قول ذلك فهي جاهزة). وقد قبل بعد أن استقبلني بلطف على غير عادته، كما قبل غريول أطروحتي التكميلية. وهكذا دافعت عنها سنة 1948 في السوربون أمام لجنة مؤلفة من: دافي، غريول، بينفينيست، بايه، وايسكارا، وهو حقوقي مهتم بالصينيات.

د. /: هل كنت تعرف بينفينيست؟

ك. ل. ش: زرت بينفينيست ودوميزيل منذ عودتي إلى فرنسا، فقد كلفني جاكوبسون بعدة مهمات إليهما. إن «البنى» يتحدث عن كل العالم لذلك تحتم أن تضم اللجنة عضواً لأجل كل منطقة جغرافية كبرى. ومن أجل الهند، اقترحت على دافي استدعاء بينفينيست.

د. /: هل أصبحت على صلة به فيما بعد؟

ك. ل. ش: تراسلنا بشكل مطوّل انطلافاً من دفاعي عن الأطروحة واعتراضاته عليها. لكنني تعرفت إليه بشكل أفضل عندما أصبحت في الكوليج. كان بينفينيست محافظاً ولا يقيم علاقات بسهولة. ذات مرة، دعوته إلى العشاء في المنزل وتوجب إنفاق كنوز من الدبلوماسية كي يقرر قبول الدعوة. لقد قال عنه جاكوبسون إنه لم يكن كذلك في شبابه بل كان مرحاً وعفوياً، لكن شيئاً ما غيرّه منذ ذلك الوقت.

د. /: نشرت «البنى الأولية للقرابة» عام 1949؟

ك. ل. ش: نعم، في مطبوعات فرنسا الجامعية.

د. /: قبل ذلك نشرت «الحياة العائلية والاجتماعية لهنود

الناميكوارا».

ك. ل. ش: نُشر هذا النص كبُحث من مئة صفحة تقريباً في جريدة مجتمع الأمريكيين. وقد سحبتُ نسخة خاصة منه من أجل المناقشة. كما نُشر «البنى» بعده بقليل، واحتفظت بنسخة منه مطبوعة على الآلة الكاتبة للغاية نفسها.

د. /: كتبت سيمون دو بوفوار تحليلاً له فور نشره.

ك. ل. ش: كانت بصدد كتابة ««الجنس الثاني» الذي حدثني عنه ليريس ذات يوم في متحف الإنسان. فقلت له إنني أنهيت كتابة عمل يعالج المسائل نفسها تقريباً. ونقل ليريس ذلك لسيمون دو بوفوار التي جاءت لقراءة مسودات «البنى» في منزلي، فقد أرادت

معرفة آخر ما توصل إليه البحث الإنثروبولوجي قبل أن تختتم كتابها. وعندما نُشر «البنى» كتبت عنه في الأزمنة الحديثة⁽¹²⁾.

د. /: بطريقة مادية تماماً؟

ك. ل. ش: وحارة أيضاً. لاحظ أن الأزمنة الحديثة أرادت في تلك المرحلة أن، تكون في قلب الحياة الفكرية. لذلك أبدت استعداداً لاستقبالي دون أن تكثر بكوني وجودياً أم لا.

د. /: كيف كان استقبال «البنى» بشكل أعم؟

ك. ل. ش: كان استقباله جيداً في أوساط الإنثروبولوجيين: لكني لا أزعم أنه أثار اهتماماً كبيراً خارج الحلقات المختصة.

د. /: يجب القول إنه كتاب تقني للغاية.

ك. ل. ش: أعترف بذلك. وقد فكرت أن أكتب مجلداً ثانياً تحت عنوان (البنى المعقدة للقرابة).

د. /: تركته جانباً؟

ك. ل. ش: لقد أدركت بسرعة أن من غير الممكن معالجة مثل هذه الأنظمة المعقدة بالطرق التقليدية: كان عليّ اللجوء إلى المعلوماتية. ولم أكن أمتلك وسائلها العملية ولا الفكرية خاصةً.

د. /: في «البنى الأولية للقرابة» نجد «ملحقاً رياضياً» كتبه

أندريه ويل.

ك. ل. ش: لهذه الصفحات قيمة تاريخية كبيرة. فهي أصل كل رياضيات القرابة التي تطورت كثيراً منذ ذلك الوقت وما تزال.

د. /: هل تعرفت على أندريه ويل، شقيق سيمون ويل، في الولايات المتحدة؟

ك. ل. ش: هو شقيق سيمون وأحد مؤسسي مجموعة بورباكي^(*). كنت أعمل على مسائل قرابة استرالية معقدة لدرجة أنني فكرت بوجود الاستعانة بالرياضيين لحلها. ذهبت لرؤية هادامار، اللاجئ إلى الولايات المتحدة أيضاً: كان مسناً ورياضياً لامعاً. عرضت عليه المسألة فأجابني أن الرياضيين لا يعرفون إلا العمليات الأربع، والزواج لا يمكن أن يشبه أياً منها. ونتيجة لذلك، قابلت أندريه ويل وهو لاجئ آخر. وحدثته عن زيارتي لهادامار فكانت ردة فعله مختلفة تماماً. لقد رأى أن من غير الضروري تعريف الزواج من وجهة نظر رياضية فما يهم هو العلاقات بين الزوجات فقط. وقد عرضت عليه معطيات المسألة فكتب ذلك التحليل الذي أتيت على ذكره.

د. /: هل اعتبرت ذلك طريقة لإظهار علمية عملك؟

ك. ل. ش: لقد ذهبت هذه البرهنة الرياضية أبعد من عملي، لكنها تناغمت مع ما حاولت فعله في الأنظمة الأقل تعقيداً بوسائل أكثر بساطة. وكانت بشكل خاص تنشأ من مبادئ مماثلة للتي طبقها جاكوبسون في الألسنية، ففي الحالتين نستبدل الاهتمام بالحدود termes بالاهتمام بالعلاقات التي تسود بين هذه الحدود. إنه بالضبط ما كنت قد شرعت بعمله لحل الأحجيات التي تطرحها قواعد الزواج أمام الإثنولوجيين.



(*) نيكولاس بورباكي: اسم شهرة جماعي استخدمته - منذ عام 1939 - مجموعة من الرياضيين الذين عرضوا الرياضيات بأخذها من نقطة انطلاقها المنطقية.

د. /: تحدثنا عن إخفاك في الكوليج دوفرانس. فما الوظائف الجامعية التي شغلتها منذ عودتك إلى فرنسا عام 1948؟

ك. ل. ش: كنت لعدة أشهر مسؤول بحث في الـ CNRS^(*) بانتظار وظائف أخرى. وأصبحت فيما بعد معاون مدير المتحف الطبيعي ومعاون مدير متحف الإنسان.

د. /: من الذي جاء بك إلى متحف الإنسان؟

ك. ل. ش: د. ريفيه. فعشية تقاعده استدعاني لأشغل منصب معاون مدير لشؤون الإثنولوجيا. كان أندريه لوروا - غوران (وهو معاون المدير لشؤون ما قبل التاريخ) يدرّس في ليون، ولم يكن موجوداً هنا باستمرار. وهكذا وقع على عاتقي تسيير معظم الأمور لمدة عام كامل، رغم أن المتحف اختار أستاذاً مسؤولاً ريثما يتم اختيار خلف لريفيه.

د. /: وفي ذلك الوقت، تعرّفت على ليريس الذي كان يعمل أيضاً في متحف الإنسان؟

ك. ل. ش: لم أكن أعرف شيئاً عن عمله. وقد قرأته آنذاك بمتعة. كانت زوجتي مونيكا (عشنا معاً ثم تزوجنا عام 1954) تعرف آل ليريس. أما هي، فقد التقيت بها عند لاكان.

د. /: كيف تعرّفت على لاكان؟

ك. ل. ش: عن طريق كويريه. وكذلك تعود صداقتي مع جورج - هنري ريفيير إلى ذلك الوقت أيضاً. كان يسكن قريباً في جادة سان - لازار، ويزورنا عندما تثقل عليه وحدة العزوبية.

(*) CNRS: المركز الوطني للأبحاث العلمية.

د. /: هل كنت في تلك الفترة قد تركت كلياً نشاطك السياسي؟

ك. ل. ش: آه، كلياً.

د. /: ألم تغرك التجربة الديغولية؟

ك. ل. ش: لا، كنت مشبعاً بالاشتراكية حتى العظم. وفي الوقت نفسه، بدا لي أن كل موقف سياسي متناقض مع نفسه. لقد تراجعتُ سياسياً خلال سنوات البرازيل، ليس بسببي أنا فقط. ففي السنوات التي سبقت الأستاذية، كنت مساعداً لجورج مونيه النائب الاشتراكي. وقد أصبح عام 1936 وزيراً في حكومة الجبهة الشعبية وكنت آنذاك في البرازيل، وانتظرت منه أن يتذكرني. لقد نسيتني رفاقي القدامى تماماً عند انتصارهم. وجاءت الأحداث والمجرى الجديد الذي بدأت تتخذه حياتي لتأتي على الباقي...

د. /: لكنك لم تنقطع عن الاهتمام بالحياة السياسية؟

ك. ل. ش: بالتأكيد، وأنا مهتم بها إلى اليوم.

د. /: بعد سنواتك في متحف الإنسان، درست في مدرسة

الدراسات العليا؟

ك. ل. ش: منذ عودتي درست في معهد الإثنولوجيا الذي كان مقره في متحف الإنسان. ثم انتخبني مدرسة الدراسات العليا من أجل كرسي موريس لينهار الذي تقاعد، دون أن يرغب في أن أخلفه، فضلاً عن تلاميذه، ووضعني ذلك في موقف صعب، لأن المدرسة بشكل عام تأخذ بالاعتبار رأي الأستاذ المتقاعد فيمن سيخلفه. ورغم ذلك تم اختياري بفضل دعم دوميزيل. ولقد أدركتُ في السنوات

الأخيرة فقط- الدور الكبير الذي لعبه دوميزيل، فالمدرسة تطلب من تريد من الأساتذة بشكل مباشر ودون ترشيح.

د. /: في قسم العلوم الدينية؟ القسم الخامس؟

ك. ل. ش: نعم.

د. /: كان مقر القسم في السوربون؟

ك. ل. ش: وما يزال. الدرج E.

د. /: حول ماذا دارت دروسك؟

ك. ل. ش: كان اسم الكرسي «ديانات الشعوب غير المتحضرة» منذ أن شغله موس. وكان عليّ أن أغيّر بسرعة هذا الاسم، وهاك لماذا: ذات يوم، كنت أتحدث عن عادات شعب إفريقي، فقام مستمع أسود وقال لي: «إنني أنتمي لذلك المجتمع ولست موافقاً على تأويلك» وقد دفعتمني حادثتان أو ثلاث من هذا النوع إلى تغيير اسم الكرسي إلى «ديانات الشعوب بلا كتابة». فليس من الممكن القول إن الذين يأتون لمناقشتنا في السوربون «غير متحضرين»! أما عدم امتلاكهم كتابة خاصة بهم فهو حقيقي.

د. /: في «الوعود» *Paroles données* الذي جمعت فيه دروسك في

مدرسة الدراسات العليا والكوليج دوفرانس، نجد حاشية تروي قصة مثيرة عن لقاء في باريس مع تالكوت بارسونز عام 1953. ثم يقترح عليك فيه مركزاً في هارفارد فحسب، بل عرض عليك عقداً جاهزاً للتوقيع⁽¹³⁾.

ك. ل. ش: عرفت تالكوت بارسونز في هارفارد فقد ألقيت فيها محاضرة عندما كنت مستشاراً ثقافياً...

د. /: ... وحافظت على صلتك به...

ك. ل. ش: ... إطلاقاً. بل أدهشني أن يطلب سوسيولوجي بهذه الشهرة مقابلتي، في الواقع، خطرت هذه الفكرة أولاً للكليد كلاكون وهو إنثروبولوجي في هارفارد علاقتي به جيدة.

وقد وردت هذه الحاشية في «الوعود» لأردّ بها على سيدة أمريكية كتبت بلؤم أنني عدت إلى فرنسا لأنني لم أجد عملاً في الولايات المتحدة. حيث أن المنظور الأمريكي لا يمكنه تفسير العودة إلى أوروبا إلا على هذا النحو! وقد حدث سوء التفاهم نفسه مع روبير ديدفيلد، وهو صديق جيد، سبق لي أن سكنت عنده وألمحت إليه -دون تسميته- في نص «نيويورك قبل التصويرية وبعدها»⁽¹⁴⁾ حين ذكرت المنزل الريادي^(*) شديد الروعة الذي يمتلكه سوسيولوجي أمريكي في صاحبة شيكاغو. لقد ضغط عليّ كي أبقى في الولايات المتحدة، ولما لم أعره أذنًا صاغية قال لي: «a case of European tiredness»^(**) في الحقيقة، كان باستطاعتي الاستقرار في الولايات المتحدة منذ زمن طويل. فمنذ البدء، منحني كورت ليفين مركزاً ثابتاً، وبعد إخفاقي في الكوليج دو فرانس قدم لي كروبر عرضاً. وها هو بارسون يمنحني شروطاً استثنائية. فهذا العقد يجعل مني Full Professor مع التثبيت أي أنني سأصبح أستاذ كرسي ولن يستطيع أحد أن يطردني أبداً. لكن لم تكن لدي رغبة في أن أعيش ثانية كمنفي.

(*) المنازل الريادية: المنازل التي شادها أوائل رعاة البقر الأمريكيون في مناطق «غير مأهولة».

(**) حالة «السخافة» الأوروبية.

إن إصراري في عدة مناسبات على خيار العودة إلى فرنسا، لا يؤثر في شيء على مشاعر العرفان العميقة التي أكنها للولايات المتحدة، فمساعدتها لي هي التي -ربما- أنقذت حياتي. كما أنني وجدت فيها خلال عدة سنوات مناخاً فكرياً ووسائل للعمل، يعود إليها الفضل في جانب كبير مما أنا عليه الآن. لكنني كنت أعرف أنني انتمي بكل حواسي ودون رجعة إلى العالم القديم.

د. /: مع ذلك، يجب تعريفك من الناحية المهنية كأمريكويا!

ك. ل. ش: لقد أصبحت أمريكوياً بالمصادفة. فأول مركز لي في الخارج كان في البرازيل. وأنداك لم تكن لدي أية فكرة واضحة عن أمريكا الجنوبية، وكان من الممكن، في الواقع، أن أرحل إلى أي مكان آخر. لذلك حريّ بك أن تسألني: لماذا بقيت أمريكوياً. يبدو لي أن أسباب ذلك هي أولاً الانطباع الذي لا يمحو الناجم عن الاحتكاك بالعالم الجديد حيث كل شيء غير محدود مقارنة بالقديم. وثانياً الانبهار الذي بقيت تحت تأثيره والعائد إلى الالتقاء وجها لوجه مع طبيعة عذراء ومهيبة، في حين أنني لم أعرف في العالم القديم إلا طبيعة ذات أبعاد ضئيلة، تشي حتى المظاهر الأكثر «برية» منها بالعمل الدؤوب للإنسان الممتد على مئات بل آلاف السنين... وأخيراً -وربما هذا هو السبب الرئيسي- لا يبدو لي أن دراسة أية قارة أخرى تتطلب من المخيلة قدر دراسة القارة الأمريكية. فقد سكنتها بشكل أساسي شعوب قدمت من آسيا عبرت الأراضي التي كانت طافية عند الموقع الحالي لمضيق بيرنج. ولكن متى؟ إن أفضل التقديرات تختلف عن بعضها بهامش خمسة آلاف سنة. ولم يتبق أي أثر من هذه العبورات

القسم الثاني

قوانين العقل

احتماليتها حتى تختفي كلما ازداد هذا الطول) لا يمكن أن يولد إلا خطاباً محدوداً، رغم أن التراكيب -وكما هو الحال في لعبة الشطرنج- لن يستنفذها أبداً ملايين اللاعبين أو المتكلمين. أما بالنسبة للسؤال الثاني، فإن هذه الوثبة في الميتافيزيقيا وفي نوع من الصوفية الإنسانية تذكر بما أنجزه عدد كبير من البيولوجيين عندما قدموا التنوع الوراثي كبرهان على الواجب الأخلاقي المتمثل في احترام كل كائن إنساني بسبب جوهره الذي لا يعوض، كل إنسان هو كائن فريد. هذا صحيح لكن ذلك لا يميزه عن بقية الكائنات الحية حتى الأكثر وضاعة منها، إن العلم لا يقدم لنا أخلاقاً لاستخدامنا الشخصي، فميدانه ليس ميدان الأخلاق.

الفصل الثاني عشر

السيو

الفلاسفة والعلم

د. /: «الفكر البدائي» مهدى إلى ميرلو - بونتي ..

ك. ل. ش: إعراباً عن العرفان بالجميل، فقد تحدثنا عنه
بصدد دخولي إلى الكوليج دوفرانس...

د. /: ... وينتهي العمل بفصل سجالي مع سارتر. حوالي ثلاثين
صفحة أثارت جدلاً طويلاً منذ عام 1962.

ك. ل. ش: نشر «نقد العقل الجدلي» عام 1960، عندما كنت
أكتب «الفكر البدائي». وقد كرست سنة من حلقاتي الدراسية في
مدرسة الدراسات العليا لدراسته. وساعدني في ذلك لوسيان سيباغ.
حيث كنا نقرؤه ونتحاور حوله. لقد بدا لي منظور سارتر متعارضاً مع
منظور الإنثروبولوجيين الذين يرون في نظامهم إحدى الطرق لفهم
عمل الفكر البشري، بينما كانت الإنثروبولوجيا تزعم سارتر، وكان
يفضل تفريغها تحت ذرائع متعددة.

د. /: هل ترى أن الفلسفة تحافظ على مكان ما في عالمنا اليوم؟

ك. ل. ش: بالتأكيد، لكن بشرط أن تؤسس رؤاها على المعرفة العلمية الحديثة ومكتسباتها. «الفلسفة العظيمة» كما يقول ميرلو - بونتي هي عمل أشخاص كانوا علماء كباراً في عصرهم ويرتكز تفكيرهم الفلسفي على بحوثهم العلمية. إن العلم والفلسفة منفصلان اليوم، لكن لا يمكن للفلاسفة أن يعزلوا أنفسهم عن علم لم يوسع رؤيتنا للحياة والعالم ويحولها فحسب، بل قلب قواعد عمل الفكر.

وكررت مئة مرة أن ما من مجتمع «بارد» أو «حار» بالمطلق. إنها مفاهيم نظرية نحتاج إليها كي نصوغ فرضياتنا. فالمجتمعات الواقعية تتوزع على طول محور ولا يحتل أي منها قطبيه.

في المقام الثاني، أنا لا أؤسس تمييزاً موضوعياً بين أنماط مختلفة من المجتمعات، بل أعود إلى الموقف الذاتي الذي تتبناه المجتمعات الإنسانية حيال تاريخها. عندما نتحدث عن مجتمعات «بدائية» فإننا نضع هذه الكلمة بين هلالين لكي نعرف أن هذا المصطلح غير صحيح وفرضه علينا الاستخدام، لكنه بمعنى ما مناسب: فالمجتمعات التي ندعوها «بدائية» ليست كذلك بأي شكل من الأشكال لكنها أرادت نفسها كذلك. فهي تحلم بأن تكون بدائية لأن مثاليها ideal هو البقاء كما خلقتها الآلهة أو الأسلاف في بدء الزمن. بالطبع إنها تتوهم ولن تفلت من التاريخ أكثر من الآخرين. فهي تخضع لهذا التاريخ الذي تشك فيه ولا تحبه. أما المجتمعات الحارة - كمجتمعنا - فتمتلك حيال التاريخ موقفاً مختلفاً جذرياً. إننا لا نعترف بوجود التاريخ فحسب بل نُكنّ له تعبداً، لأن المعرفة التي نؤمن بها أو نريد الحصول عليها من ماضيها المشترك، وبالتحديد من الطريقة التي نفسر بها هذا الماضي، تخدمنا في تشريع أو نقد تطور المجتمع الذي نعيش فيه وفي توجيه مستقبله، ومثال سارتر يظهر ذلك جيداً. إننا نستبطن تاريخنا ونجعل منه عنصراً من وعينا الأخلاقي.

د. /: في نقاش مع موريس غودوليه ومارك أوجيه نشر في مجلة الإنسان (39) عام 1975، يوجد عدد من العبارات تحدد جيداً رغم ندرتها فهمك للتاريخ. تقول على سبيل المثال «يجب الانحناء أمام اللالزوم الأولي *contingence irreductible* للتاريخ».

ك. ل. ش: كنت أستعيد الجملة الختامية من «من العسل إلى الرماد». عندما أخذ علي الماركسيون والماركسيون الجدد جهلي بالتاريخ أجبته: أنتم من تجهل التاريخ أو بالأحرى من يدير له ظهره. فأنتم تضعون مكان التاريخ الواقعي والعياني قوانين كبرى للتطور لا توجد إلا في رؤوسكم. إن احترامي للتاريخ والميل الذي أشعر به نحوه يأتين من الإحساس الذي يعطيني إياه بأن ما من بناء فكري يمكنه أن يحل محل الطريقة غير المتوقعة التي تجري عليها الأمور واقعياً. ويبدو لي الحدث في لا «لزومه» معطى «أولياً». ويجب على التحليل البنيوي أن يعمل بوجود ذلك.

د. /: إنك ترفض وجود «قوانين للتاريخ»!

ك. ل. ش: إن عدد المتغيرات كبير (ثمة عدد كبير من المعايير) لدرجة أن إدراكاً إلهياً فقط يمكنه أن يعرف ويعلم ما حدث منذ الأزل وما سيحدث. فالبشر يخطئون دائماً والتاريخ يثبت ذلك. يقال: «سيحدث أحد هذين الأمرين» ودائماً يحدث الثالث.

د. /: هل يترك اللا نزوم المطلق هذا مكاناً للتحليل التاريخي؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. فالأحداث تبقى غير قابلة للتوقع مادامت لم تحدث بعد. لكن، حالما يتم ذلك، يمكننا أن نحاول فهمها وتأويلها. كما يمكن ربط الأحداث بعضها ببعض وفهم منطق هذا التسلسل بطريقة عكسية retrospectivement. أما في الحاضر فلا شيء يسمح بتوقع ما سيحدث نظراً لوجود عدد كبير من الاحتمالات: بعضها قابل للتصور وبعضها الآخر غير قابل للتصور كلياً.

الفصل الرابع عشر

تتبع مخرب أعشاش العصافير

د. إ. أولد «أسطوريات» الذي بدأت بنشره منذ عام 1964، من دروسك في القسم الخامس من مدرسة الدراسات العليا.

ك. ل. ش: لقد سمحت لي هذه الدروس أو بالأحرى هذه الحلقات الدراسية، بأن أتمهل عدة سنوات. كنت أعرف فيها ما سأعمل لكنني أتردد في الشروع به. لقد جذبتني بداية ميثلوجيا بويلوس لأنها محصورة جيداً، وبسبب الفنى والكثافة والتجانس النسبي لدونة corpus كرس إثنولوجيون أمريكيون أنفسهم لجمعها خلال عدة عقود. وقد ساعدني لوسيان سيباغ وجان كلود غاردان في جرد وتنقيح المواد. كنّا نضع أسطورة على الطاولة ونحللها معاً. كانت النتائج مقنعة لكن ميثلوجيا بويلوس بدت لي سريعاً مغلقة ومنغلقة على نفسها كثيراً. وشعرت بحاجتي إلى مجال أوسع من المناورة كي أختبر المنهج فقررت أن أعاود الانطلاق من أسطورة البورورو: مخرب أعشاش العصافير التي استحوذت على اهتمامي في حلقة سابقة قبل عدة سنوات من بدء «أسطوريات».

د. د.: في المجلدات الأربعة لأسطوريات، قمت بشرح ثمانمئة وثلاث عشرة أسطورة زيادة على ألف رواية مختلفة. وقلت إن هذا لا يمثل إلا جزءاً من المادة المتوفرة. من أين تحصل على هذه الأساطير كلها؟

ك. ل. ش.: من أي مكان. حيث لا تخلو عملياً أية دراسة وافية حول شعب ما أو قبيلة من بعض الأساطير التي يضيفها المؤلف بعد أن ينهي دراسة الثقافة المادية والحياة العائلية والاجتماعية لهذا الشعب أو القبيلة. كما توجد مجموعات من الكتب مخصصة برمتها لدراسة ميثولوجيا بعض الشعوب وقد قمت بفرز هذا حسب حاجتي لأنني لو بدأت بجرد عقلاني ومنهجي لاستغرق القيام به عشر سنوات قبل أن أكتب سطرأ واحداً.

د. د.: ثم انطلقت إلى المغامرة؟

ك. ل. ش.: ثم انطلقت ممّا لاحظته منذ وقت طويل خلال إقامتي في البرازيل من أن البورورو وأقرب أقربائهم -أعضاء العائلة اللغوية Ge- يمتلكون تنظيمات اجتماعية متقاربة يمكن أن تفسّر الاختلافات بينها كحالات تحوّل: وقد شكّلت هذه الفرضية موضوعاً للعديد من دروسي ومقالاتي. ومن هنا برزت فرضية جديدة: ألا يمكن تفسير التشابهات والاختلافات بين أساطير هذه الشعوب بالطريقة نفسها؟

وهكذا بدأت بدراسة ميثولوجيا وسط البرازيل لألاحظ أساطير الشعوب المتجاورة تتزامن أو تتراكب جزئياً أو تتوافق أو تتناقض حسب الحالة. إن تحليل كل أسطورة يتطلب أساطير أخرى. وهذه العدوى الدلالية -إذا صح القول- تمتد شيئاً فشيئاً وفي عدة

اتجاهات في الوقت نفسه. كما عند الوصول إلى مطل مفتوح على آفاق واسعة تحت هي نفسها على بلوغ مطلات أخرى يمتد النظر خلالها في اتجاهات جديدة.

د. /: وهذا ما سميت منهج «إشراقات بشكل ورديات» (*) *levers*

en rosace

ك. ل. ش: مهما تكن الأسطورة المتخذة كمرکز، فإن رواياتها المختلفة تتشعب حولها مشكّلة وردية تتسع تدريجياً وتتعدد، ومهما تكن الرواية الموجودة في المحيط التي نختارها كمرکز جديد، فإن الظاهرة نفسها تتكرر مجدداً مولدة وردية ثانية تتقاطع مع الأولى وتتجاوزها، وهكذا، إنما ليس إلى ما لا نهاية بل إلى أن تقودنا هذه التكوينات المقوسة إلى النقطة التي انطلقنا منها. مع استنتاج مفاده أن حقلاً مبلبلاً وغير محدد أصلاً يكشف عن شبكة من خطوط القوى ويظهر منظماً بشدة.

د. /: يطرح هذا المنهج مشكلة «مقارنية» *comparatisme*

برمتها. في ختام «طريق الأقنعة» انتقدت الإثنولوجيين الذين يعتقدون بأن من الممكن الاكتفاء بدراسة مجتمع وحيد أو دراسة المجتمعات واحداً تلو الآخر⁽⁴⁰⁾...

ك. ل. ش: فلنتفاهم جيداً: إن الإثنولوجيين الذين يكرسون أنفسهم على مدى أشهر أو سنوات أو عقود أحياناً لدراسة شعب واحد يستحقون كل الامتنان. فبدونهم قد لا نفعل شيئاً ولا نكون شيئاً. لكن تبرز المشكلة عندما يراد تأسيس نظرية على ذلك. فالفعل

(*) الوردية: بنية زخرفية على شكل وردة متفتحة.

على أساس تجربة وحيدة وحصرية مليء بالأخطار لأن هذه التجربة لا تظهر إلا حالة ممكنة من بين مئات أو آلاف.

أما بخصوص المنهج المقارن، فهو لا يتضمن المقارنة أولاً ثم التعميم، كما سبق لي القول مراراً. بل إن التعميم -وعلى عكس ما يُعتقد غالباً- هو الذي يؤسس المقارنة ويجعلها ممكنة. فأمام تعدد التجارب يجب البدء بالبحث عن مستوى تكون فيه الوقائع الملاحظة والموصوفة قابلة للتحويل -أحدها إلى الآخر- تبادلياً. ولا تصبح المقارنة شرعية إلا عندما ننجح في صياغة هذه الوقائع بلغة مشتركة، وبفضل هذا التعميق المسبق.

د. ل. ك. / لكي يمكن عقد مقارنة، ينبغي تحديد باحة جغرافية تكون فيها العلاقات بين المجتمعات قابلة للتصور ولا ...

ك. ل. ش: خضعنا للتساهلات التي أزرّت بالمقارنة في القرن التاسع عشر.

د. ل. ك. / مما يحتم افتراض تاريخ مشترك بين الشعوب التي تشرعون في مقارنة أساطيرها.

ك. ل. ش: قاعدة لمنهج حكيم ندين به لبواس. لكن يمكننا من وقت لآخر أن نسمح لأنفسنا بالهروب من المدرسة. ففي مقال لم ينشر حتى هذه اللحظة، تسليت بمقارنة الطريقة التي تعبر فيها التوراة عن الختان وما يقوله البورورو عن حمل الغمد الذكري⁽⁴¹⁾. إن هذا النوع من المقارنات المغامرة يعطي في بعض الأحيان أفكاراً ستلقى استخداماً أفضل في وقت آخر. ولا يمكن استخلاص نتائج منها باستثناء -ربما- أن الفكر البشري يتحرك في حقل محدود من

الممكنات بحيث يمكن لتشكلات عقلية متشابهة أن تتكرر في حقب وأمكنة مختلفة، دون أن يكون من الضروري البحث عن أسباب أخرى لذلك. إن هذا شبيه إلى حد ما بالمشكال الذي يحتوي على عدد محدد من القطع نصف الشفافة: نظرياً، لا شيء يمنع من أن يظهر التشكيل نفسه ثانية بعد عدد من الاهتزازات. وهذا احتمال ضئيل جداً لكنه ليس مستحيلاً.

د. ل: **يقودك تحليلك في «أسطوريات» إلى أساطير تذكر بأساطير اليونان.**

ك. ل. ش: من بعيد، ومن بعيد أيضاً ببعض أساطير اليابان. وهذا يستحق التدوين كي نحفظ حقوق التأويلات المحتملة. وكيفيني بدلاً من مغزى عابر- قبول أن الفكر البشري يعمل بمساعدة مسرد محدد من البنى الشكلية. وسيذهب الاختصاصيون في هذه المناطق من العالم إلى أبعد من ذلك إذا استطاعوا. أنت تعرف دون شك -ومن المفترض أن دوميذيل حدثك عن ذلك أثناء لقاءاتك به- أن علماء يابانيين يعتقدون أنهم وجدوا الوظائف الهند-أوروبية الثلاث في كوريا وفي اليابان.

د. ل: **الم تحاول التفكير بأن كل هذه الأساطير تعود إلى ميثولوجيا أكثر قدماً: باليوليتيكية(*) مشتركة؟**

ك. ل. ش: عندما ننظر من عل إلى الميثولوجيا العالمية، نتبين من هنا وهناك ثيمات themes تبدو متشابهة جداً بحيث يستحيل أن تكون قد أبدعت بشكل مستقل. وربما نتجت هذه التشابهات عن

(*) باليوليتيكية: نسبة إلى العصر الحجري القديم.

اقتباسات تعود إلى فترة حديثة، أو إلى فترة قديمة نسبياً أو مفرقة في القدم. فلنأخذ عنصراً motif ميثولوجياً وليكن شعباً من الأقزام يحارب طيوراً مائية: إننا نجده في الحضارات الكلاسيكية القديمة وفي الشرق الأقصى وفي أمريكا... فهل تم إبداعه عدة مرات؟ هذا احتمال ضئيل فإذا متى وعبر أي طريق انتشر؟ لا نعرف ذلك. يمكن افتراض أي شيء، كأن يكون مستمراً كأثر متبق من ميثولوجيا باليوليتيكية أو أن يعود انتشاره إلى بضعة قرون فقط أو أنه انتشر عبر خط قد نتمكن يوماً من تحديده. كل هذه حالات خاصة يجب دراسة كل منها على حدة.

د. /: نجد في كتبك نمطين من المقارنة: في «البنى الأولية للقرباية» مقارنة تنتقل من قارة إلى أخرى.

بينما تؤكد في «أسطوريات» على حرصك ألا تقارن أبداً أي شيء غير قابل لأن يرجع إلى تاريخ مشترك، إلى ماضٍ مشترك...

ك. ل. ش: إن هدف البحثين ومناهجهما متشابهة لكن الوضعيات التاريخية لكل منهما مختلفة. عندما تصدبت لدراسة أنظمة القرباية وقواعد الزواج، كان ثمة توهان في تأويلات خاصة. وبالمقابل، كانت دراسة الأساطير فريسة مقارنة هذيانية تُمدّ إلى العالم بأسره، قائمة على تشابهات سطحية، وهكذا كان عليّ أن أتحرك في اتجاهات متعارضة.

إضافة إلى أن هذين الصنفين من الظواهر ليسا من المستوى نفسه. فمع القرباية والزواج يتم لمس أسس الحياة الاجتماعية: وهذا شبيه بمستوى جزئي (وكما نعلم فإن الأشياء تتشابه على المستوى الجزئي عند كل الكائنات وفي كل الأمكنة). بينما تعطي الأساطير

للباحث مظاهر أكثر تعقيداً وتنوعاً بحيث يجب في البدء الانكباب على اختزالها.

د. ل. ش: ومع ذلك، يتم أحياناً فهم عملك كأنه يسمح بربط ميثولوجيات العالم بأسره ببعضها ببعض بنظام «التحولات».

ك. ل. ش: بالتأكيد لا. لأن بين دراسة القرابة ودراسة الأساطير فرقاً ثالثاً. فحوالي 1942 - 1943 عندما كنت أقارب الأولى، كان خلفي قرن كامل من الدراسات النسقية للقرابة أستطيع الارتكاز عليه. وكانت تتوفر لي مواد مكتوبة بلغة تقنية متجانسة نسبياً -يقال اليوم مطبّعة Normalise- سمحت لي بالانتقال إلى المرحلة التالية أي المقارنة. بينما لم يكن متوفراً شيء من هذا القبيل عن الأساطير التي كانت تصلني على شكل مواد خام غير مستثمرة عملياً. وبالتالي كان لزاماً عليّ أن أحاول خلق اصطلاح قابل للانتشار إذا أكدت دراسات مماثلة على مناطق أخرى من العالم مشروعيته العامة، أو إذا تطلّبت ذلك إصطلاحات أخرى متشابهة معه. بحيث يكون الطموح إلى العمومية في مستوى أعمق. يجب عمل كل هذا وسأتحفظ على الحكم عليه مسبقاً.

د. ل. ش: في الجوهر يقترب منهجك في «أسطوريات» من منهج دوميزيل: أي تحديد منطقة جغرافية ومحاولة إيجاد البنى السفلية المتماثلة فيها. بيد أن نقطة رئيسية تفصل بين مقاربتيكما: فهو يمتلك تعاقباً تاريخياً هاماً، بينما لا تستطيع عند تحليلك للأساطير الأمريكية أن تجد عمقها التاريخي.

ك. ل. ش: لست بحاجة إلى أن أقول لك كل ما أدين به لعمل دوميزيل. لقد استقيت منه دروساً وحوافز. لكن الفرق الذي تذكره

ليس الوحيد. لم يكن لنا الهدف نفسه. فقد كان يسعى لكي يبرهن أن لمنظومة التصورات (التي تم إثبات وجودها في عدة مناطق من آسيا وأوروبا) أصل مشترك. في حين كان لديّ هدف آخر. إن الوحدة التاريخية والجغرافية في مادة بحثي موجودة منذ البداية: فشعوب أمريكا تألفت من موجات متتابعة من المهاجرين، لهم جميعاً في الإطار العام الأصل نفسه، ويقع دخولهم إلى العالم الجديد حسب المؤلفين، بين الألف السبعين وحوالي الألف الخامس عشر. ولذلك كنت أبحث عن شيء آخر: في البدء إبراز الاختلافات بين الميثولوجيات التي يثبت التاريخ وحدتها، وفيما بعد فهم آليات الفكر الأسطوري انطلاقاً من حالة محددة.



د. /: يتألف كل جزء من «أسطوريات» من مئات الصفحات. ومع ذلك، أنت ترى في ختام «الإنسان العاري» أنه عمل متجانس.

ك. ل. ش: مع هذا التحفظ: بعد أن أنهيت الجزء الثالث قلت لنفسني إنني لن أنجح أبداً في الوصول إلى النهاية فما زال ينقصني الكثير. لذلك اتخذت قراراً بأنني لن أكتب بعده إلا جزءاً واحداً هو الرابع، وأنني سأجعله يضم كل ما أرغب بقوله، على شكل تلميحات أو تحريضات للأبحاث المستقبلية. إن هذا الجزء أكبر حجماً من الأجزاء السابقة، وبناءً على معقد جداً: فهو يضم مادة كتابين أو ثلاثة.

د. /: هل كنت تخشى من فشل محاولتك؟

ك. ل. ش: كنت أتذكر سوسور وأعماله حول النيبلانغ Niblungen. لقد أمضى جزءاً من حياته -ربما هو الجزء الأكبر منها-

في ترتيب هذا الخليط من الأساطير والسير والتاريخ. وخلف مئات المخطوطات محفوظة في مكتبة جنيف، حيث حصلت عليها ودرستها. لقد سحرتني هذه القراءة بكل الأفكار التي وجدتتها فيها، وخاصة الدرس الذي استخلصته منها: كان البحث يتطور وتم فتح طرق جديدة. لكن سوسور مات قبل أن ينشر أي شيء من عمله الضخم. وكنت أشعر أنني معرض للخطر نفسه، فعزمت على الإفلات منه، خوفاً من ألا تصل مغامرتي إلى نهايتها كما حدث لمغامرته.

د. /: عندما عملت على هذه الأساطير بدأت بعرضها. اعتقد أنها أكثر طولاً وتنوعاً من روايتك لها.

ك. ل. ش: لقد أخذوا علي خطأ هذا المأخذ. فالتفاصيل التي أغفلتها في الملخص عدت إليها فيما بعد في سياق التحليل، وكان هدفي من ذلك السماح لقارئ يجهل كل شيء عن الميثولوجيا وعن عالم أمريكا، أن يكون فكرة عامة عن كل أسطورة أو مجموعة من الأساطير. ثم فيما بعد، أجبره على الدخول في التفاصيل دون أن أغفل أيّاً منها عندما يظهر التحليل دورها وأهميتها.

د. /: إنها قصص رائعة، نصوص أدبية حقيقية. لا بد أن الغوص في هذا الأدب منحك متعة.

ك. ل. ش: إنها قصص رائعة ومؤثرة غالباً، بشرط أن يكون المُخبر أيضاً رايواً جيداً، وهذا ما لا يتوفر دائماً. لقد بدأت بالانكباب على الميثولوجيا عام 1950 وأنهيت «أسطوريات» عام 1970، وخلال هذه السنوات العشرين عشت في عالم آخر ثملاً بالأساطير.

لقد تشريبتها، فمن الضروري أن نمتص منها أكثر بكثير مما نستخدم! عندما ثبت أن أسطورة لشعب ما توجد على شكل معدل عند شعب مجاور يجب جرد كل أدبه الاثنوغرافي لكي نبحت في وسطه وتقنياته وتاريخه وتنظيمه الاجتماعي، عن عوامل قد تفسر هذه التعديلات. وهكذا عشت مع هذه الشعوب وأساطيرها كما في حكاية من حكايات الجان.

د. ل: إنها أيضاً تجربة جمالية.

ك. ل. ش: ومثيرة بمقدار ما تظهر هذه الأساطير للوهلة الأولى كالأغاز. فهي تروي قصصاً دون نهاية ولا بداية مليئة بأحداث منافية للعقل. لذلك يجب حضانة الأسطورة لعدة أيام أو أسابيع وأحياناً لعدة أشهر، قبل أن تنبثق الشرارة فجأة، لأتعرف في تفصيل غير مفهوم من أسطورة ما، على تحويل لتفصيل غير مفهوم من أسطورة أخرى، ولأتمكن عبر هذه الموارد من قيادتهما معاً إلى الوحدة. إن أي تفصيل ليس بحاجة لأن يدل على شيء إذا أخذ منفرداً، ففي علاقته الاختلافية تكمن قابلية فهمه.

د. ل: أصبحت عناوين أجزاءك الأربعة شهيرة، وتعتبر الأجزاء الثلاثة الأولى (النبي والمطبوخ ومن العسل إلى الرماد وأصل آداب المائدة) عن المسيرة الجمالية: إظهار الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة. أما الأخير «الإنسان العاري»...

ك. ل. ش: فقد عاد إلى نقطة الانطلاق، لأن العاري قياساً بالثقافة معادل للنبي بالطبيعة: وهكذا كانت الكلمة الأولى من عنوان الجزء الأول، والكلمة الأخيرة من عنوان الجزء الأخير متوافقتين مثلما

يعود طواف يبتدئ في أمريكا الجنوبية ويصعد تدريجياً حتى شمال أمريكا الشمالية إلى نقطة الانطلاق في نهاية المطاف.

د. /: عندما عنونت الجزء الأول «النبيء والمطبوخ» هل فكرت بعنونة الأخير «الإنسان العاري»؟

ك. ل. ش: لم أكن أمتلك رؤية واضحة كلياً. لكنني كنت أعرف، في الإطار العام، ما سيكون عليه مساري. حيث كان عليّ الانطلاق من أساطير تجعل من الطبخ معيار الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة، ثم التحرك شيئاً فشيئاً، مدفوعاً بالمنطق الداخلي للأساطير للوصول إلى أساطير لا يعود فيها الحد الفاصل بين الثقافة والطبيعة ماراً بين النبيء والمطبوخ، إنما بين قبول ورفض التبادلات الاقتصادية، أي، بين قبول ورفض حياة اجتماعية تتجاوز حدود المجموعة. إن المعارض والأسواق التي تلتقي فيها الشعوب موسمياً -حتى المتعادية منها- لتتبادل الأطعمة ومنتجات صناعتها، تعتبر شكلاً معدداً للحياة الاجتماعية يمكن مقارنته بالتحول الأول الذي تفرضه ثقافة منفردة على الطبيعة عبر الطبخ (وقد قام بهذه المقارنة فعلاً بعض المهتمين).

د. /: انتظم كتابك وفق «إشراقات بشكل ورديات» ووفق صعود من أمريكا الجنوبية باتجاه أمريكا الشمالية في الوقت نفسه.

ك. ل. ش: في الواقع. إن تحول الأساطير بالمعنى الذي ذكرته للتو قد تم في الشمال الشرقي لأمريكا الشمالية (من الأوريفون إلى كولومبيا البريطانية) بسبب التطور الاستثنائي للتبادلات التجارية بين القبائل. ثم، أليس أمراً ذا دلالة خاصة أن أجد فيه أساطير أمريكية جنوبية دون تعديل تقريباً (وهي أساطير كنت قد انطلقت منها)؟ لقد انغلقت الحلقة في المكان وبين نصفي الكرة في الوقت نفسه.

د. /: نقطة انطلاقك، كما ذكرت، هي أسطورة البورورو حول مخرب اعشاش العصافير. كيف تم اختيار «أسطورة مرجعية» تسمح بربط كل البقية؟

ك. ل. ش: عشت في قرية بورورو أثناء بعثتي الأولى. وكان انتباهي آنذاك منصباً على التنظيم الاجتماعي، وعندما بدأ انشغالي بالعلوم الدينية في القسم الخامس اهتمت أيضاً بالميثولوجيا التي عمل المبشرون الساليزيون على جمعها منذ نصف قرن.

د. /: مما يدل على أن الخيار كان اعتبارياً تماماً؟

ك. ل. ش: في البدء نعم. وكما سبق لي القول عن التاريخ بشكل عام: أستطيع الآن -إذا عدت القهقري- تفسير هذا الخيار بل تبريره أيضاً. أما عندما قمت به فقد كان ذلك لأسباب عرضية.

د. /: نظرياً، كان بإمكانك الانطلاق من أسطورة أخرى ومن شعب آخر.

ك. ل. ش: دون شك. وبما أن أرض الميثولوجيا دائرية، فخط سير آخر كان سيقودني إلى النقطة نفسها. بيد أنني فهمت فيما بعد أن هذه الأسطورة تحتل موقعاً استراتيجياً في مجموع الأساطير الأمريكية الهندية. إنها مفصل بين منظومتين: منظومة العلاقات العمودية ومنظومة العلاقات الأفقية. أي بين العلاقات: أعلى / أسفل، سماء / أرض، طبيعة / فوق طبيعة، من جهة وبين العلاقات: قريب / بعيد، مواطن / غريب من جهة ثانية.

د. /: يسير «أسطوريات» وفق تحرك جغرافي ووفق تقدم في تعقيد التحليل أيضاً.

ك. ل. ش: هذا صحيح. تتقدم الأجزاء الأربعة وفق حركة مزدوجة. فمن جهة، ثمة الامتداد الجغرافي: في «النيء والمطبوخ» يقتصر التحليل على أمريكا الجنوبية، وخاصة وسط البرازيل وشرقه. ويوسع «من العسل إلى الرماد» حقل البحث، باتجاه الشمال كما باتجاه الجنوب، لكنه يظل في أمريكا الجنوبية، ومع «أصل آداب المائدة» يُستأنف التحليل اعتباراً من أسطورة أمريكية جنوبية لكنها شمالية أكثر، تعالج المسألة ذاتها بواسطة صور مختلفة تظهرها بوضوح أكبر أساطير أمريكا الشمالية. وهكذا فرض الانتقال من قارة إلى أخرى نفسه فارتكز الكتاب على الاثنتين. أما الجزء الأخير فهو شمالي كلياً ويسير بالقارئ إلى الأبعد. لأن التشابهات الأكثر وضوحاً بين الأساطير توجد بين مناطق متباعدة جداً من العالم الجديد. وهذه مفارقة مدهشة بذلت جهدي لشرحها.

أما الحركة الثانية فمتعلقة بالمنطق. حيث تتصدى الأساطير المقدمة بالتتابع لمسائل ذات تعقيد متزايد. فأساطير الجزء الأول تستخدم تقابلات بين كييفيات محسوسة: نيء / مطبوخ، طازج / متعفن، جاف / رطب الخ... وفي الجزء الثاني تحل محل التقابلات شيئاً فشيئاً تقابلات أخرى لا تتطلب منطق كييفيات بل منطق أشكال: فارغ / مليء، محتوٍ / محتو، داخلي / خارجي الخ... وينجز الجزء الثالث خطوة حاسمة، فهو يعالج الأساطير التي تتجاوز مقابلة الكلمات لتقابل الطرق المختلفة التي تتقابل وفقها هذه الكلمات فيما بينها: يمكن أن تكون متصلة / يمكن أن تكون منفصلة، حيث تتساءل كيف يتم الانتقال من حالة إلى أخرى.

تحتل الأساطير التي تحكي عن سفر بالنقيرة موقِعاً

استراتيجياً في الكتاب لأنها تبرز بشكل رائع هذا النوع من المسائل. ففي بداية السفر وأثناءه يبتعد القريب ويقترّب البعيد شيئاً فشيئاً، وفي نهايته تنقلب القيمتان البدئيتان لهذين الحدين. لكن السفر استغرق زمناً. وهكذا دخل الزمن إلى الفكر الأسطوري كوسيلة ضرورية لنشوء علاقات بين العلاقات الموجودة قبلاً في المكان. وهذا يدل على أن بعداً روائياً يتداخل تدريجياً مع البعد الأسطوري، مع كل النتائج التي يفرضها ذلك على تطور النوعين. كما يظهر أيضاً أن الفكر الأسطوري قادر على التجريد (وإن بطريقة مضمرة) فهو يقوم بربط حاذق دائماً لحدود هي في الأصل صور عيانية مأخوذة من التجربة الحسية.

د. إ: تُظهر في العمل هذا الفكر المنطقي الذي عرّفته في «الفكر البدائي». وفي استطراد صغير في «من العسل إلى الرماد» تتساءل لماذا لم تقم الشعوب التي امتلكت هذه القدرة على التجريد المنطقي، بالانتقال إلى العقل العلمي والفلسفي الذي أنتجته حضارات أخرى في العصور القديمة؟

ك. ل. ش: لا أعرف، ربما كان يجب أن تصبح المجتمعات نفسها من نمط آخر كي يتحول الفكر.

د. إ: يحدد فيرنان الانتقال إلى الفكر العقلاني عند الإغريق في التنظيم السياسي للمدينة.

ك. ل. ش: نعم، ورأى آخرون في متطلبات التحديد والصرامة الملازمة للفكر الحقوقي شرطاً مسبقاً لظهور الفكر العلمي. وتبقى هذه التفسيرات المختلفة غير شمولية كما يبدو.

د. /: ينتهي طوافك في الميثولوجيا بفصل عنوانه «الأسطورة الوحيدة» في «الإنسان العاري». هل أردت القول إن كل الأساطير المحللة في الأجزاء الأربعة ليست في الواقع إلا تنويعاً على الأسطورة نفسها؟

ك. ل. ش: على الأقل تنويعات على ثيمة كبرى: الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة الذي كان ثمنه قطيعة نهائية بين العالمين السماوي والأرضي، ومن هنا المشاكل الإنسانية التي تدور حولها هذه الميثولوجيا.



د. /: هل تعتبر أن «الخزافة الغيور» ينتمي إلى «أسطوريات»؟
فانت لم تعالج فيه المسألة نفسها تماماً.

ك. ل. ش: الإشكالية هي ذاتها: ويكمن الاختلاف فقط في المحتوى التجريبي - أو الجمالي بالمعنى الكانطي للكلمة. كما أن الوتيرة مختلفة، فالكتاب أقصر وإيقاعه أسرع. إن «الخزافة الغيور» قياساً بـ«أسطوريات» يشبه إلى حد ما الباليه قياساً بالأوبرات الضخمة.

د. /: بعد أن كرست الكثير من السنوات لدراسة الأساطير قممت بإعلان استكانة مدهش: علم الأساطير متلعثم.

ك. ل. ش: وقبل ذلك أيضاً. لقد قلت في «النيء والمطبوخ»: «ما يزال علينا فعل كل شيء أو تقريباً كل شيء قبل أن نتمكن من الكلام عن علم حقيقي».. والعنوان الفرعي للأجزاء الأربعة في

الترجمة الإنكليزية «مدخل إلى علم الأساطير» قد وضعه الناشرون رغم اعتراضاتي.

د. ل. ش: لكنك قمت بخطوة.

ك. ل. ش: أعتقد ذلك. إنما كم ينبغي القيام بأخرى! سيحتوي عدد قادم من «الإنسان» على مقال لزميلي في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية جان بوتيتو، معاون رينيه توم ومريده⁽⁴²⁾ يترجم فيه بمصطلحات نظرية الكوارث عبارة قلّتها عام 1955 ووضحتها بأمثلة في «الخزافة الغيور». إنني غير قادر على متابعته لكنني سعيد جداً لأن الرياضيين لا يهزون أكتافهم أمام المظاهر الشكلية Formel لعملي ولأنهم يأخذون تحليل الأساطير على محمل الجد.

د. ل. ش: لماذا لم تحاول في «أسطوريات» القيام بمثل تجربة التشكيل الرياضي التي قمت بها في «البنى الأولية للقراءة»؟

ك. ل. ش: تحدثت في هذا مع الرياضيين، وقال لي بعضهم إن الأمر قد يكون ممكناً، لكنه صعب عليّ كثيراً. وإنهم أقدر على القيام به. إن المسألة المطروحة في «البنى الأولية للقراءة» مرتبطة مباشرة بالجبر وبنظرية مجموعات التعويض. أما المسائل التي تطرحها الميثولوجيا فتبدو غير قابلة للفصل عن الأشكال الجمالية التي تموضعها. إن هذه الأشكال تنتمي إلى المستمر والمنقطع في الوقت نفسه، وهي نقيضة تعطي نظرية الكوارث وسيلة جديدة لتجاوزها.

يمكن أيضاً التفكير بالحاسوب. وقد ترامى إلي وجود محاولات في أمريكا لإعادة كتابة «النبي والمطبوخ» آلياً إذا صح التعبير.

د. /: هل تعرف النتيجة؟

ك. ل. ش: ربما كانت السلاسل أكثر دقة، لكنها أخذت وقتاً لا يتناسب معها. ولا شك أن مبتكري هذه المناهج كانوا مشغولين بأشياء أخرى: فقد توصلوا إلى توليد الأساطير الخمس الأولى في الوقت الذي كنت فيه -باجراءاتي الحرفية- قد حللت عدة مئات مع ترك العديد منها في شيء من «الضبابية الفنية» بالطبع.

الفصل الخامس عشر

عمل الفكر

د. ا. اود أن اطرح عليك سؤالاً سهلاً: ما هي الأسطورة؟

ك. ل. ش: هذا -على العكس- ليس سؤالاً سهلاً البتة. لأن بالإمكان الإجابة عليه بعدة طرق. لو سألت هندياً أمريكياً فسيجيب غالباً: الأسطورة قصة تعود إلى زمن لم يكن فيه تمايز بين الحيوانات والبشر بعد. ويبدو لي هذا التعريف عميقاً جداً. فوضع بشرية تتعايش مع أنواع حية أخرى وتتقاسم معها المتعة على الأرض دون أن تستطيع التواصل معها هو الوضع الأكثر مأساوية وتعدياً على المشاعر والفكر، وذلك رغم سُحْبِ الحبر التي أمطرها التراث اليهودي - المسيحي عليه كي يقنّعه. ويُفهم من التعريف السابق أن الأساطير ترفض أن تعتبر هذا العيب في الخلق أصيلاً، وأنها ترى في ظهوره الحدث المدشن للشرط الإنساني وعاهته.

يمكن أيضاً أن نبحث عن تعريف للأسطورة عبر تعارضها مع أشكال أخرى من التراث الشفوي: السِّير، الحكايات.. لكن هذه

التميزات ليست خالصة أبداً. ربما لم تلعب هذه الأشكال الدور نفسه في الثقافات لكنها إنتاج الفكر عينه، ولا يستطيع التحليل الامتناع عن الاستفادة منها كلها أيضاً. على ماذا يقوم هذا الفكر؟ إنه -على عكس المنهج الديكارتي- يقوم على رفض تجزيء الصعوبة وعدم قبول أجوبة جزئية أبداً، والتوق إلى تفسيرات تشمل كلية الظواهر.

إن ما تتميز به الأسطورة هو أنها عندما تواجه مسألة، تفكر فيها عبر تماثلها مع مسائل أخرى مطروحة على أصعدة أخرى: كونية، فيزيائية، أخلاقية، حقوقية، اجتماعية الخ.. وتأخذ بالاعتبار كل ذلك مجتمعاً.

د. ل. ش: الأمر الذي يفسر لعبة التشابكات التي قمت بها.

ك. ل. ش: ما تقوله أسطورة ما بلغة تبدو خاصة بميدان معين، يتشعب إلى كل الميادين التي من الممكن أن تطرح فيها مسائل من النمط الشكلي ذاته.

د. ل. ش: وهذا ما كنت تنتقد فيه فرويد في نهاية «الخزافة الغيور»: انتباهه مثبت حصراً على الراموز code الجنسي.

ك. ل. ش: يمكننا أن نتقد فرويد إلى ما لا نهاية: فنصوصه ملتبسة ومتناقضة أحياناً. لكن إعطائه موقعاً مفتاحياً للراموز الجنسي ليس مثار شك.

د. ل. ش: مع ذلك، في الأساطير التي تحليلها، يصعقنا الحضور الكلي للجنسية ومواكب العنف التي ترافقها.

ك. ل. ش: لأن هذا الجانب يشغل حيزاً كبيراً في نظام قيمنا

وفي حياتنا الاجتماعية. لاحظ مع ذلك أن الأسطورة لن تعالج أبداً مسألة متعلقة بالجنسية بحد ذاتها ولأجلها هي ذاتها معزولة عن كل شيء آخر. بل ستعكف على إظهار أن هذه المسألة مماثلة شكلياً لمسائل أخرى يطرحها البشر حول الأجرام السماوية، وتعاقب الليل والنهار، وتعاقب الفصول، والتنظيم الاجتماعي والعلاقات السياسية بين المجموعات المتجاوزة.. فعندما يواجه الفكر الأسطوري مسألة خاصة يضعها بموازاة المسائل الأخرى مستخدماً في الوقت نفسه عدة رواميز.

د. /: إنه شرح عبر مسائل متتابعة.

ك. ل. ش: دون حل أي منها أبداً. إن التشابه بين كل هذه المسائل هو الذي يوهم بأن من الممكن حلها، منذ أن نعي أن الصعوبة الملاحظة في حالة ليست موجودة أو ليست موجودة بالدرجة نفسها في الحالات الأخرى. إننا نستدل قليلاً بواسطة هذه الطريقة عندما نريد أن نشرح شيئاً فنقول: «كما عندما...» أو «إنه مثل...». هذا كسل فينا، لكن الفكر الأسطوري يستخدم هذه الطريقة استخداماً حاذقاً ونسقياً لدرجة أنها تحل محل البرهان...

د. /: سؤال آخر «سهل»: لماذا تفيد الأسطورة؟

ك. ل. ش: لكي تشرح لماذا أصبحت الأشياء المختلفة منذ البداية، على ما هي عليه، ولماذا لا يمكن أن تكون شيئاً آخر. لأنها - تحديداً - لو تغيرت في ميدان معين لانقلب كل نظام العالم نظراً لتشابه الميادين.

د. /: كيف تنبثق الأسطورة؟ لا بد أن فرداً قالها للمرة الأولى!

ك. ل. ش: بالتأكيد، لكنك إذا اعتبرت أن الإحاثيين سيصعدون أعلى فأعلى أصل البشرية، فستتفق معي أن الإجابة على سؤالك ليست سهلة. ربما كان أسلاف الإنسان -منذ مليون أو مليوني سنة- يمتلكون لغة ملفوظة، ولا شيء يستبعد أنهم كانوا يروون الأساطير. وقد تم تحويل هذه الأساطير على مر العصور فاختلفت بعضها وولد بعضها الآخر. في أية ظروف؟ إنها كالفطر تقريباً لا نراه أبداً وهو ينبت! إن الإبداع الفردي لا يخلق بمفرده أسطورة. بل يجب أن تتحول بواسطة كيمياء خفية وأن تتمثلها مجموعة اجتماعية لأنها تتوافق مع حاجاتها الفكرية والأخلاقية. فالقصص تخرج من أفواه الأفراد، ينجح بعضها ويفشل آخر..

إن مسألة أصل الأسطورة تشبه مسألة أصل اللغة التي امتنع المجمع الألسني في باريس بجلال عن طرحها لأن الإجابات عليها لا يمكن أن تكون إلا تخميناً. وربما ستأتي الإجابة عليها من الفيزيولوجيا العصبية للدماغ، لكنها في كل الأحوال لن تأتي أبداً من الإثنولوجيا أو من الألسنية. أما بالنسبة للتصورات الأسطورية، فالتساؤل حول أصلها يبقى أقل أهمية من دراسة الموقف الفكري الذي يتخذه الناس تجاه أساطيرهم. إن لهذه الأساطير روايات متنوعة. لكن لا يتم الاختيار بين هذه الروايات أو انتقادها أو الإقرار بأن واحدة منها صحيحة فقط أو أنها أكثر صحة من الأخريات: بل يتم قبولها تزامنياً دون أن تخلق اضطراباً باختلافها. وقد جرت أبحاث عديدة في نقاط مختلفة من العالم أكدت عمومية هذا الموقف الفكري. إن من الضروري دراسة هذا الموقف عن قرب ومقارنته بموقفنا حيال التاريخ الذي تنتشر في مجتمعاتنا روايات مختلفة له، بل متناقضة أحياناً.

د.إ: إذا: الأسطورة بالنسبة لك هي مجموع تنويعاتها ورواياتها. ألم تسع لتحديد الرواية الأصلية.

ك.ل.ش: لا توجد رواية «جيدة»، ولا يوجد شكل أصلي أو بدئي. ويجب أن تؤخذ كل الروايات على محمل الجد.

د.إ: في ختام «الخزافة الغيور» كتبت إن الأسطورة «مرآة مكبرة» لطريقتنا الدائمة في التفكير. هل هذه هي الإشكالية التي قادتك على طول هذه السلسلة من الكتب؟

ك.ل.ش: إنها أيضاً إشكالية «البنى الأولية للقراءة» عدا أن الوقائع الدينية في «أسطوريات» حلت محل الوقائع السوسولوجية في «البنى» لكن السؤال المطروح لا يتغير: فمع وجود عماء من الممارسات الاجتماعية أو التصورات الدينية، هل سنستمر بالبحث عن تفسيرات جزئية مختلفة وفق كل حالة؟ أم سنحاول اكتشاف نظام كامن وبنية عميقة يمكن بواسطتها شرح كل هذا التنوع الظاهر، والانتصار على التفكك؟ كما أن «البنى» و«أسطوريات» يطرحان المسألة ذاتها تماماً في ميادين مختلفة، ويسيران في مسارين متماثلين.

د.إ: لكن هذه العبارة: «مرآة مكبرة» تستدعي التوقف.

ك.ل.ش: في كل ما كتبت عن الميثولوجيا، أردت أن أظهر أن المستحيل الوصول إلى معنى أخير. أليس هذا ما يحدث في الحياة؟ فالدلالة التي يمكن أن تعطيها أسطورة ما لي ولأولئك الذي يحكونها أو يسمعونها في لحظة ما وفي ظروف محددة، لا توجد إلا عبر علاقتها بدلالات أخرى يمكن للأسطورة أن تعطيها لرواة آخرين أو مستمعين آخرين في ظروف أخرى وفي لحظة أخرى.

تقدم الأسطورة شبكة يمكن تعريفها عبر قواعد بنائها فقط. وتسمح هذه الشبكة باستخلاص معنى، لا للأسطورة نفسها، لكن لكل الباقي: صور العالم والمجتمع والتاريخ المتكومة على عتبة الوعي مع الأسئلة التي يطرحها البشر بصددتها، ويسمح القالب الذي تقدمه الأسطورة بجمعها في كل واحد متلاحم. إن هذا الدور الذي أسنده للأسطورة يتوافق مع الدور الذي كان بودلير يعطيه للموسيقا. ففي تناوله لمطلع Lohengrin بين عبر الأمثلة أن كل ذات فردية ترى في العمل محتوى مختلفاً. مع أن كل هذه المحتويات تعود إلى عدد قليل من المقاطع الثابتة⁽⁴³⁾.

عندما نتساءل بشكل عام ما الذي تعنيه كلمة «يدل» نلاحظ أنها دائماً تعني أن نجد في ميدان آخر معادلاً شكلياً للمعنى الذي نبحت عنه. وما القاموس سوى إظهار هذه الحلقة المنطقية. إن إعطاء دلالة لكلمة ما يتم بواسطة كلمات أخرى يستدعي تعريفها هي نفسها كلمات أخرى وهكذا. وسنعود على الأقل نظرياً إلى نقطة البداية رغم الجهود التي يبذلها واضعو المعاجم لتجنب التعاريف الدائرية.

إننا نعتقد بأننا اكتشفنا معنى كلمة ما أو فكرة ما عندما نتجح في إيجاد معادلات متعددة لها متعلقة بمبادئ سيميائية أخرى. والدلالة ليست سوى هذا التوصيل. ويصح هذا على التصورات كما يصح على الكلمات. ولأن الأسطورة تستخدم الصور والأحداث -وهي مواضيع كبرى- فهي تمثل هذه الظاهرة بوضوح أكبر وبطريقة أكثر كثافة، لكنها تعكس شروطاً عامة جداً لعمل الفكر.

الفصل الثالث

الثقافة، الثقافات

الفصل السادس عشر

العرق والسياسة

د.إ: في درسك الأول في الكوليج دوفرانس، تساءلت عن مستقبل الإثنولوجيا. ما هو ردك اليوم؟

ك.ل.ش: قد أكون ملزماً بالقيام ببعض الإيضاحات لأن كثيراً من التطورات حدثت خلال ربع القرن هذا، كما أن الأفكار قد تغيرت تماماً. وخاصة ما يتعلق منها بالمجتمعات التي تدرسها الإثنولوجيا.

د.إ: لأن المجتمعات التقليدية هي ما يهتم الإثنولوجي، وهي تختفي الواحد تلو الآخر.

ك.ل.ش: أنت تعرف أن هذا ما كان يقال في القرن الثامن عشر! وكانت المجموعات الأولى من العلماء التي تأسست لدراسة الإنسان تبرر مهمتها مجاهرة: يجب أن نسرع لأن المجتمعات التقليدية لن تبقى لمدة طويلة. وعندما ألقى فريزر في سنة ميلادي درسه الأول في جامعة ليفربول، أعلن الأمر نفسه. فهذه لازمة تتكرر في البحث الإثنولوجي. إنني أسلم بأن الأبحاث تسارعت وأننا نستطيع أن ندرك

حداً ما بصورة معقولة. ومع ذلك يبقى الكثير ممّا لم يدرس بشكل كاف أو لم يدرس جيداً في عشرات ومئات من الشعوب ما تزال موجودة، وستظل موجودة لعدد لا بأس به من السنين، لذلك أرى هنا تحريضاً لمضاعفة جهودنا بدلاً من إضاعتها. ثم حتى عندما تتدثر هذه الثقافات يظل بإمكاننا دراستها واقتراح رؤى جديدة، كما نفعل اليوم بثقافات الإغريق واليونان.

د. ل: لكننا نمتلك عن الإغريق والرومان آثار...

ك. ل. ش: نحن من كوّن هذه الآثار على النحو الذي هي عليه عبر الاهتمام الذي نغيرها إياه.

د. ل: هل تعتقد أن من السهل أيضاً تكوين الوثائق والآثار الخاصة بقوم من البرازيل؟

ك. ل. ش: بالنسبة لشعوب مدروسة قليلاً أو بشكل سيء أو لفترة قصيرة جداً فأنت محق تماماً، سيكون الضياع نهائياً. لكن - وبالتحديد في أمريكا التي أعرفها جيداً - تزخر محفوظات مكتبة الكونغرس والمجمع الفلسفي الأمريكي بمخطوطات لم يفرز الكثير منها، بل إن بعضها لم يجرّد بعد.

د. ل: هل هي كنوز هاجعة؟

ك. ل. ش: نعم، وربما تعادل حجماً ما خلفه اليونان والرومان.

د. ل: إذا، ليست الإنثروبولوجيا علماً مهدداً..

ك. ل. ش: إذا لم يبقَ من موضوع للبحث الميداني فستتغير طبيعتها ويتحول الإنثروبولوجيون إلى فقهاء لغة ومؤرخي أفكار

واختصاصيين في حضارات يتم الوصول إليها فقط عبر الوثائق التي جمعها الملاحظون القدامى. ومن يدري ما إذا كانت ستظهر اختلافات جديدة في بشرية تحت خطر التوحد؟

د.إ: لديك شعور بأن البشرية تتجه باتجاه تجانس مطلق؟

ك.ل.ش: كلمة «مطلق» مبالغ فيها. إنما لم يكن من الممكن أبداً الحديث عن حضارة عالمية بهذا القدر من الاحتمال مثل اليوم.

د.إ: ليس أحد ملاذات الإثنولوجيا كي تستمر- هي الالتفات

إلى مجتمعات معاصرة أقرب إلينا كالأرياف الفرنسية مثلاً؟

ك.ل.ش: ليست هذه الأبحاث ملجأ ولا حلاً للتراجع. بل إن لها أهميتها الداخلية. وهي لم تتطور إلا بشكل متأخر، لأننا كنا نمتلك انطباعاً بأننا نعرف عن مجتمعاتنا أكثر مما نعرف عن المجتمعات الغريبة: فكانت الضرورة ملحة أكثر لدراسة هذه الأخيرة. ومن جهة أخرى، تكشف لنا الحالات القديمة لمجتمعاتنا، في البدء عبر الأرشيف-بالمعنى الواسع للكلمة- الممتد على عدة قرون. إن 5-10٪ فقط من معرفتنا لمجتمعات وسط البرازيل أو ميلانيزيا يتم الحصول عليها من التاريخ، بينما يعود الفضل في معرفة الباقي إلى الإثنولوجيا. أما في حالة مجتمعاتنا فتتقلب هذه النسبة حيث يقتصر دور الإثنولوجيا على تكملة وإغناء عمل يقع في البدء على عاتق المؤرخ.

د.إ: يمر مستقبل الإثنولوجيا أيضاً عبر أسئلة مؤسسية. هل

تعتقد أن وضعها اليوم مُرضٍ أكثر مما كانت عليه عندما بدأت الاهتمام بها؟

ك. ل. ش: عندما بدأت حياتي المهنية كإثنولوجي لم يكن ثمة كرسي للإثنولوجيا في الجامعات الفرنسية، وأعتقد أن أول كرسي كان لمارسيل غريول عشية الحرب أو أثنائها. أما اليوم فقد أصبحت الإثنوبولوجيا مادة تعليمية تدرس في الجامعات. غير أن عدد المراكز والكراسي المخصصة لها غير كافٍ قياساً بالعمل العاجل الذي ينبغي فعله.

د. ل: على غرار بقية المواد التعليمية، لا بد أن الإثنولوجيا تصطدم بنقص المال: يلزمها ميزانية!

ك. ل. ش: مع الفرق أن حاجة الفيزيائيين والبيولوجيين للمال كي تعمل مختبراتهم معترف بها، فبدونه لا يمكنهم إجراء تجاربهم والتحقق من تجارب زملائهم، لكن لا يتم الاعتراف بالدرجة نفسها - أن «مختبرات» الإثنولوجيين توجد على بعد آلاف الكيلومترات وأن الذهاب إليها والعيش فيها يتطلب مالاً أيضاً.



د. ل: في عام 1952، ومع نص «العرق والتاريخ» تركت المنظور الإثنولوجي المحض لتحل في مستوى، يمكن أن ندعوه «سياسياً» يمس مباشرة مسائل معاصرة⁽⁴⁴⁾.

ك. ل. ش: لقد كتبته بناء على طلب ولا أعتقد أنني كنت سأكتبه من تلقاء نفسي.

د. ل: بناء على طلب من؟

ك. ل. ش: لقد طلبت اليونيسكو من مجموعة مؤلفين كتابة سلسلة من الكتيبات حول المسألة العرقية: من ليريس ومني أنا...

د. ا: تؤكد في هذا الكتيب تنوع الثقافات وتدخل فكرة التقدم وتعلن «التحالف» الضروري للثقافات...

ك. ل. ش: في الإطار العام، كنت أبحث عن وسيلة لإعادة التوفيق بين مفهوم التقدم والنسبوية الثقافية Relativisme culturelle. يفرض مفهوم التقدم أن تكون بعض الثقافات -في أزمنة أو أماكن محددة- أعلى من الأخرى لأنها أنتجت أعمالاً بدت الأخرى غير قادرة على القيام بها.

أما النسبوية الثقافية، وهي إحدى أسس التفكير الإثنولوجي عند جيلي وسابقيه على الأقل (بعضهم ينكرها اليوم) فتؤكد أن ما من معيار يسمح بالحكم المطلق على ثقافة ما أنها أعلى من أخرى. ولقد حاولت أن أنقل مركز ثقل المسألة. فإذا كانت بعض الثقافات -في بعض الحقب والأمكنة- «تتحرك» في الوقت الذي «لا تتحرك» فيه ثقافات أخرى فهذا ليس بسبب تفوق الأولى، لكن بفعل أن الظروف التاريخية أو الجغرافية قد حثت على تعاون بين ثقافات مختلفة différents (ليست لا متساوية Inegales، فلا شيء يسمح بتقرير ذلك). إنها تتحرك مقتبسة من بعضها وساعية إلى التعارض فيما بينها. إنها تتلاقح وتتحافز بالتبادل. بينما في حقب أخرى أو في أماكن أخرى، تعيش الثقافات التي تبقى معزولة كعوالم مغلقة حياة راکدة.

د. ا: لقد أصبح هذا النص من كلاسيكيات اللاعرقية antiracisme بل تم تدريسه في الثانويات. هل كتبت نصاً ثانياً عام 1971 عنوانه «العرق والثقافة»⁽⁴⁵⁾ كرد فعل ضد هذا؟

ك. ل. ش: لقد كتبت أيضاً بناء على طلب من اليونيسكو من

أجل مؤتمر احتفالي مخصص لافتتاح عام دولي للنضال ضد العرقية.

د. ل. ش: قلت فيما بعد «لقد أثار هذا النص ضجة وكان هذا

هدفه».

ك. ل. ش: ... هذا كثير قليلاً. إنما الشيء المؤكد هو أنه أثار ضجة في اليونيسكو. فبعد عشرين عاماً من «العرق والتاريخ»، طلب مني التحدث من جديد عن العرقية، ربما بانتظار أن أكرر ما كنت قلته سابقاً. إنني لا أحب أن أكرر نفسي خاصة أن كثيراً من الأمور حدثت خلال هذه السنوات العشرين، وفيها غيظي المتزايد من العرض الدوري للمشاعر الطيبة وكأن ذلك كان كافياً. لقد بدا لي أن الصراعات العرقية لم تكن إلا لتتفاقم، ومن جهة ثانية اختلطت في ذهن الناس مفاهيم كالعرقية واللاعرقية، ونظراً لفرط مدّ هذه المفاهيم بشكل غير ملائم تمت تغذية العرقية بدلاً من إضعافها.

د. ل. ش: تحدثت هذه المرة عن الاختلافات التي تفصل الثقافات

وتقابلها. وهذا عكس ما ذهبت إليه طروحاتك السابقة.

ك. ل. ش: إطلاقاً. إن النص الأول لم يُقرأ جيداً. لقد نشرت «الإنسانية» مقالاً أراد أن يثبت أنني غيرت مشاريعي فاستشهد بفقرة طويلة من «العرق والثقافة». وهذه الفقرة نفسها موجودة حرفياً في «العرق والتاريخ»، فقد أعدت كتابتها كما هي تماماً لأنها بدت لي مناسبة.

د. ل. ش: إن أكثر ما يصدم في «العرق والثقافة» هو -على الأرجح-

فكرة أن الثقافات تسعى لأن يعارض بعضها بعضاً.

ك. ل. ش: في ختام «العرق والثقافة» أبرزت مفارقة: فالاختلافات بين الثقافات هو الذي يجعل لقاءها خصياً، لكن هذه اللعبة المشتركة تجبر توحيدها التدريجي: إن الفوائد التي تجنيها الثقافات من هذه الاحتكاكات تأتي بشكل واسع من الاختلافات النوعية بينها، لكن أثناء هذه التبادلات تتناقص هذه الاختلافات حتى تختفي. أليس هذا ما نشهده اليوم؟ وبالمناسبة ثمة فكرة مفادها أن الثقافات في تطورها تتجه باتجاه إنتروبيا^(*) متزايدة تنتج عن امتزاجها، عرضتها في نص أصبح -كما قلت منذ قليل- أحد كلاسيكيات اللاعرقية (وهذا يثلج صدري) لكن هذه الفكرة مقتبسة مباشرة عن غوبينو المدان بصفته أباً للعرقية. ويظهر ذلك بوضوح البلبلة السائدة في العقول حالياً.

وعلى أية حال، تمتلك رؤى غوبينو طابعاً حديثاً جداً لأنه يتعرف على جزيرات من النظام يمكن أن تتشكل بفعل ما يدعوه «ترابطاً» في الأجزاء المختلفة للبنية (وهذا أيضاً حديث جداً). وأعطى أمثلة عديدة لذلك. لقد كان يعي أن هذه التوازنات المتحققة بين الخلائط تسير عكس تدهور يعتبره غير قابل للعكس.

ماذا نستخلص من كل هذا سوى أن من المرغوب فيه أن تبقى الثقافات متنوعة أو أن تتجدد ضمن التنوع؟ يجب فقط -وهذا ما أبرزه النص الثاني- أن نقنع بدفع ثمن ذلك: أي أن تسهر الثقافات التي يرتبط كل منها بأسلوب حياة وبنظام قيم على خصوصيتها، وهذا إجراء سليم وغير مرضي بأي حال من الأحوال، كما يراد لنا أن نعتقد. إن كل ثقافة تتطور بفضل تبادلاتها مع ثقافات أخرى، لكن

(*) الإنتروبيا: مصطلح ترموديناميكي يعبر عن درجة الفوضى في نظام ما.

يجب أن تصنع كل منها مقاومة ما، وإلا فسرعان ما ستفقد كل شيء خاص بها يمكن مبادلتها. إن لكل من غياب الاتصال والإفراط فيه خطره.

د. ل. ش: كيف تفسر أن نصك الأول عام 1952 هو الذي عرف نجاحاً

وليس الثاني؟

ك. ل. ش: لقد نُشر الأول على شكل كتاب صغير، أما الثاني وهو نص محاضرة، فلم ينشر مستقلاً أبداً. إنني لا أستطيع فعل شيء حيال تهمين الأول أكثر من الثاني، وأنا أرى أنهما يشكلان كلاً واحداً. وأضيف هنا إنني ضمنت الثاني ما توصل إليه علم وراثاة الجماعات، لذلك فهو أصعب. مع أن «العرق والتاريخ» صعب أيضاً، فلم تكن تمضي سنة دون أن يأتي طلاب وطالبات من الثانويات لرؤيتي أو يكتبون إلي أو يتصلون بي هاتفياً قائلين: لدينا موضوع حول «العرق والتاريخ» ونحن لم نفهم منه شيئاً!

د. ل. ش: ماذا تفعل لو طلبت منك اليونيسكو اليوم محاضرة

جديدة حول الموضوع نفسه؟

ك. ل. ش: لا خطر في ذلك!

د. ل. ش: لكن الصحف والإذاعات غالباً ما تطلب رأيك حول

العرقية وأنت ترفض الإجابة عامة...

ك. ل. ش: ليس لدي رغبة في الإجابة، ففي هذا الميدان يتم التخطيط في خلط كبير، وأنا أعرف مسبقاً أن ما سأقوله ومهما يكن - سيتم تأويله بشكل سيء. إنني مقتنع كإثنولوجي بأن النظريات

العرقية مسخنة وسخيفة في الوقت نفسه. لكن امتهان مفهوم العرقية باستخدامه خبط عشواء يفرغه من محتواه، ويجازف بالوصول إلى نتيجة معاكسة لما نتوخاه. فما هي العرقية؟ إنها عقيدة محددة يمكن تلخيصها بنقاط أربع. الأولى: يوجد ارتباط بين الإرث الوراثي من جهة والكفاءات الفكرية والملكات العقلية من جهة ثانية. الثانية: هذا الإرث مشترك عند جميع أعضاء تجمع بشري معين. الثالثة: يمكن تدريج هذه التجمعات المدعوة «أعراقاً» حسب إرثها الوراثي. الرابعة: تسمح هذه الاختلافات للـ«أعراق» المدعوة عليا بقيادة واستغلال الأعراق الأخرى بل تدميرها أيضاً. إنها نظرية وممارسة لا يمكن الدفاع عنها لعدة أسباب ذكرتها، بعد مؤلفين آخرين أو في الوقت نفسه، في «العرق والثقافة» بالقوة ذاتها الموجودة في «العرق والتاريخ». أما مسألة العلاقات بين الثقافات فتوجد في مستوى آخر.

د.ل. إذاً، بالنسبة لك لا يعتبر عداً ثقافة لثقافة أخرى

عرقية؟

ك.ل. ش: العداة الفعال، بلى. فلا شيء يسمح لثقافة ما بتدمير ثقافة أخرى أو حتى باضطهادها. إن إلغاء الآخر يستند حتماً على علل متعالية Transcendant: العرقية وأخرى مماثلة. لكن لا ضير في شعور الثقافات بألفة متفاوتة بعضها تجاه البعض الآخر مع حفاظها على احترام متبادل. فهذا موقف طبيعي ويمثل سلوكاً إنسانياً سوياً، وعند وصفه بالعرقية تتم المجازفة بلعب لعبة العدو، لأن كثيراً من السذج سيقول: إذا كانت هذه هي العرقية فأنا عرقوي.

إنك تعرف انجذابى لليابان. عندما أرى في باريس زوجاً ذا

هيئة يابانية أنظر إليهما باهتمام وود مستعداً لإسداء خدمة. هل هذه عرقوية؟

د. /: إذا نظرتَ إليهما بود: لا، لكن لو قلت لي: أنظرُ إليهما بحقد. لأجبتك: نعم.

ك. ل. ش: لكني اعتمدت في تمييزهما على المظهر الجسدي والسلوك ورنه اللغة. في الحياة اليومية، يفعل كل الناس الشيء نفسه لتحديد موقع شخص مجهول على الخريطة الجغرافية.. ويلزم الكثير من الرياء لادعاء منع هذا النوع من المقاربة...

د. /: هل توجد مظاهر جسدية تولد فيك النفور؟

ك. ل. ش: تقصد أنماطاً إثنية؟ كلا بالتأكيد. لكنها جميعاً تضم تحت - أنماط يبدو لي بعضها جذاباً على عكس بعضها الآخر. فعند بعض الطوائف الهندية في البرازيل كنت أشعر أنني محاط بكائنات جميلة، في حين أعطاني بعضها الآخر انطباعاً ببشرية منحطة. وقد بدت لي نساء النامبيكوارا بشكل عام أجمل من الرجال، والعكس عند البورورو. إننا بإطلاقنا أحكاماً كهذه نطبق معايير ثقافتنا في حين أن المهم في هذه الحالة معايير أصحاب العلاقة فقط. إنني أنتمي إلى ثقافة لها أسلوب في الحياة ونظام من القيم متميزان، وبالتالي فالثقافات المختلفة جداً لا تثيرني تلقائياً.

د. /: ألا تحبها؟

ك. ل. ش: قد يكون مبالغاً فيه قول ذلك. عندما أدرسها إثنولوجياً أفعل ذلك بكل موضوعية بل بكل تفهم وعلى قدر

استطاعتي. وهذا لا يمنع أن بعض الثقافات تتوافق مع ثقافتي أقل من الأخرى.

د. إ: يذكر ريمون آرون رسالة وجهتها له عام 1967 بخصوص السياسة الإسرائيلية: «لقد شعرتُ بجرح بليغ لكنه ليس الجرح الأول بالتأكيد فقد شعرتُ بمثله لإبادة الهنود الحمر، وأنا اليوم لا أستطيع اتخاذ موقف معاكس حيال العرب الفلسطينيين، ولو أن احتكاكي القليل بالعالم العربي جعلني أشعر بنفور يصعب اقتلاعه...»⁽⁴⁶⁾.

ك. ل. ش: هذه العبارة متطرفة. كنت أكتب منقاداً لقلمي، ولم أكن أريد أن يختلط الأمر على آرون حيال موقعي فينسب إلي مشاعر مؤيدة للعرب. من الصحيح مع ذلك أنني خلال عدة أشهر قضيتها في بلدان إسلامية (الباكستان وما أصبح اليوم بانغلادش) لم «أعلق» كما يقال. وقد اعترفت بذلك في «المدارات الحزينة».

قد يجد أي إثنولوجي نفسه في مثل هذا الموقف يوماً. إن روبرت لوي إثنولوجي كبير كانت صداقته تشرفني، ولأعماله حول الكراو والهوبي أثر كبير، ومع ذلك فقد أسرّ لي مراراً أنه ينسجم كلياً مع الكراو ولا يحتمل الهوبي كثيراً.

د. إ: في الواقع، عندما تُسأل عن العرقية، لا يكون المقصود بالسؤال العلاقات بين ثقافات مختلفة في قارات مختلفة بقدر ما يكون المقصود به المجتمع الفرنسي المعاصر وما يدعى «المجتمع متعدد الثقافات». لقد أشيع في العام الماضي أن الحكومة فكرت بأن توليك رئاسة لجنة مكلفة بإعادة صياغة قانون الجنسية لكنها تراجعت لأن من الممكن أن يشكل استدعاء إثنولوجي لرئاسة مثل هذه اللجنة صدمة.

ك. ل. ش: من المزعج (إذا كان هذا صحيحاً) أن يُخشى من صدمة المهاجرين لتشبيههم بالشعوب التي يدرسها الإثنولوجيون كما لو كان يتم ضمناً إقامة تراتبية بين الثقافات.

د. إ: انك تعتبر -إذا فهمت جيداً تعريضك للعرقية- أن لا وجود للعرقية في فرنسا حالياً.

ك. ل. ش: توجد ظواهر مقلقة لكنها ليس مرتبطة بالعرقية بالمعنى الدقيق للكلمة -إلا عندما يُقتل عربي لمجرد أنه عربي وهو أمر يستدعي عقاباً فورياً ودون رحمة- إنما توجد (وستوجد دائماً) جماعات تميل إلى إقامة علاقات ودية مع جماعات لها قيم وأنماط حياة لا يصطدمان مع القيم ونمط الحياة الخاصين بها أكثر مما تميل لذلك مع جماعات أخرى. وهذا لا يمنع أن تكون علاقاتها مع هذه الأخيرة صافية. بل يجب أن تكون كذلك. فمثلاً إذا كان عملي يتطلب الهدوء، وكانت جماعة إثنية ما تتلاءم مع الضجيج بل إنه يسعدها، فلن ألومها ولن أجرم إرثها الوراثي، لكنني سأفضل ألا أعيش قريباً، ولن أهتم كثيراً إذا تم السعي لإدانتني بهذه الذريعة الشريرة.

د. إ: هل يمكن لمجتمع أن يكون أحادي الثقافة مع امتزاج الشعوب والاعترا ب والهجرات...؟

ك. ل. ش: أحادي الثقافة كلمة لا تعني شيئاً، فلا يوجد مجتمع يمكن أن يكون كذلك أبداً. كل الثقافات تنتج عن الاختلاطات والتأثيرات والامتزاجات الموجودة دائماً بتواترات مختلفة. إن أي مجتمع من المجتمعات هو مجتمع متعدد الثقافة عبر نمط تشكله، وقد أسس كل منها عبر قرون تركيباً أصيلاً. وهي تحافظ على هذا

التركيب الذي يكون ثقافتها في لحظة معينة بصلابة متفاوتة. من يستطيع اليوم أن ينكر وجود حضارة يابانية أو حضارة أمريكية رغم الاختلافات الداخلية؟ لا يوجد بلد في العالم هو نتاج للامتزاج كالولايات المتحدة، ومع ذلك يوجد American Way of Life يرتبط فيه كل سكان البلد بغض النظر عن أصلهم الإثني.

بما أنك تسألني عن فرنسا، فسأجيبك بأن نظامها القيمي في القرنين 18 و 19 شكّل قطباً جاذباً لأوروبا وللعالم. ولم يكن تمثُّل المهاجرين يطرح أية مشكلة. واليوم لن توجد مشاكل جديدة إذا ظلّ نظامنا القيمي يبدو للجميع -ومن المدرسة الابتدائية- حياً وصلباً كما في الماضي.

د. ل. ش: تواجه كل المجتمعات الغربية بشكل واضح مشكلة التمثيل المستحيل هذه: انكلترا، ألمانيا... ويبدو فيها تعايش الثقافات صعباً كما في فرنسا.

ك. ل. ش: إذا لم تكن المجتمعات الغربية قادرة على حفظ أو خلق قيم فكرية وأخلاقية مؤثرة بشكل كاف لجذب الأشخاص القادمين من الخارج وجعلهم يرغبون بتبنيها، فإن ذلك دون شك مثير للقلق.

د. ل. ش: تناول أعمالك غالباً -وخاصة منها النصوص التي أتينا على ذكرها للتو- كأعمال موازية لحركات التحرر من الاستعمار. ما رأيك؟

ك. ل. ش: أقرأ ذلك من وقت لآخر. بل إنني قرأت حديثاً أن نجاح «المدارات الحزينة» مرتبط بصعود العالم -ثالثية. يوجد هنا

سوء فهم. فالمجتمعات التي كنت أدافع عنها مهددة بالعالم - ثالثة أكثر مما كانت مهددة بالاستعمار، لأن حكومات البلدان التي نالت استقلالها بعد الحرب الثانية ليس لديها أي رفق بالثقافات المدعوة متخلفة والموجودة في أحشائها. وهناك سبب آخر قد يبدو لك الاعتراف به صفيقاً: لم أنكبّ على دراسة البشر إنما على دراسة المعتقدات والعادات والمؤسسات. ولذلك فأنا أدافع عن هذه الشعوب الصغيرة التي تسعى للبقاء وفيّة للنمط التراثي لحياتها بعيداً عن الصراعات التي تجزئ العالم المعاصر. أما الذين يخرجون عن هذه الحالة ليشاركونا في صراعاتنا فيطرحون مسائل سياسية وحتى جيوبوليتيكية، ومن المعروف أن وعي مثل هذه المسائل يتطلب غالباً رؤيتها من أكثر من زاوية.

د.ل: هل تثق بالاستعمار أكثر من العالم - ثالثة؟

ك.ل.ش: الاستعمار هو الخطيئة الكبرى للغرب، لكني لا أرى أن قفزة كبيرة قد تحققت مع اختفائه من حيث حيوية الثقافات وتعدديتها.

د.ل: أقيمت على الإثنولوجيا دعوى مغايرة: ربما كان للإثنولوجيا (على العكس) دور مرتبط بالاستعمار. هل تبدو لك هذه الرؤية صحيحة؟

ك.ل.ش: أن تكون الإثنولوجيا قد ولدت وتطورت في ظل الاستعمار فهذا واقع تاريخي. غير أن الإثنولوجيين سعوا خلافاً للاستعمار وبالتعارض معه أيضاً، إلى إنقاذ المعتقدات وأنماط الحياة التي كانت الثقافات تتساها بنظم متسارع.

د.إ: ذهب البعض إلى حد القول أن الإثنولوجيا كانت تديم الهيمنة الاستعمارية بعد انتهاء الاستعمار. وتأتي هذه المقولات أحياناً من أشخاص عملوا معك كروبرت جولان.

ك.ل.ش: لقد انضم إلى مختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية منذ ما يقارب الثلاثين عاماً. لكننا انفصلنا بسرعة بسبب عدم توافق مزاجينا. عندما تريد الشعوب التي تعرضت للإبادة أن تعيد عقد الصلة مع ماضيها فإنها غالباً ما تلجأ إلى كتب الإثنولوجيا لمساعدتها على ذلك. والأمثلة عديدة على هذا.

د.إ: حسب هذه الانتقادات، يحتفظ الغربي باستعلاء على الثقافة التي يلاحظها.

ك.ل.ش: إنه استعلاء الملاحظة لا استعلاء الملاحظ. فلكي تتم الملاحظة يجب البقاء في الخارج. ويمكن تفضيل الانصهار في الجماعة التي نعيش معها والتماهي فيها (لكن هل هذا ممكن عملياً؟) على أية حال هذا خيار أخلاقي أما المعرفة فهي في الجانب الآخر.

د.إ: إذا فالمعرفة لا تأتي إلا من التباعد بين الذات والموضوع؟

ك.ل.ش: هذا جانب. وفي زمن ثانٍ سيتم السعي لجمعها. ولن تكون المعرفة ممكنة إذا لم يتم التمييز بين اللحظتين، لكن أصالة البحث الإثنوغرافي تقوم على هذا النوسان.

د.إ: يطرح جاك غودي في مؤلفه حول العقل الكتابي مسألة العلاقات بين الملاحظ والمجتمع الذي يدرسه: عندما ندرس التقاليد الشفوية والحضارات التي لا تعرف الكتابة، فإن مجرد نقل هذه

التقاليد يغيرها ويفرض عليها أصناف إدراك الملاحظ ومجتمعه. ماذا تقول في ذلك؟

ك. ل. ش: يبدو لي هذا صحيحاً، لكنه مبتذل. إنه صحيح بالنسبة لكل ملاحظة بما في ذلك الملاحظة في العلوم الأكثر تقدماً. ويجب علينا بالتأكيد أن نبقي واعين إلى أننا نفقد الأصالة الأولى للوقائع أثناء نقل الملاحظة: حيث تتم ترجمتها إلى لغة أخرى ولا بد أن يُفقد شيء ما في الطريق. لكن ماذا يسعنا أن نستخلص من ذلك؟ هل نتخلي عن الترجمة؟ أو عن الملاحظة؟



د. ل: تحدثنا منذ قليل عن العرقية. هل عانيت منها أنت نفسك كيهودي في شبابك أو فيما بعد في حياتك المهنية؟

ك. ل. ش: قد يكون من الوقاحة أن أذكر الكارثة البشعة والصاعقة التي وقعت على جزء من البشرية أنتمي إليه، فقد كنت محظوظاً بالإفلات منها. ومقارنةً بها لم أتعرض إلا لأعمال بسيطة: نهب، بتر حياة أبي بمحن الاحتلال... بيد أن من الواضح أنها وجهت قدرتي بصورة جوهرية.

في طفولتي كنا ما نزال نُشتم في المدارس الابتدائية والثانوية.

د. ل: هل عرفت مواقف مشابهة لما وصفه فرانسوا جاكوب في مذكراته؟⁽⁴⁷⁾

ك. ل. ش: نعم، وربما أكثر منه، فأنا أكبر عمراً.

د. ل: وفيما بعد؟

ك. ل. ش: لعبت معاداة السامية دوراً في بعض الصعوبات المهنية، لكن بشكل محدود نظراً للتحفظات المستوحاة من أفكاري أو شخصيتي.

د. /: إنك مناصر لـ «التمثل» Assimilation ولم تطالب أبداً بـ «هوية» يهودية لكنك تعرف جملة ميترو عنك المذكورة في يومياته «إنه نموذج للمفكر اليهودي».

ك. ل. ش: هذا لا يزعجني أبداً. إننا لسنا عقولاً نقية من أي تأثير، ويبدو طبيعياً من قبل ميترو، وهو الإثنولوجي، أن يضع فرداً ما في إطاره عندما يريد تقييمه.

د. /: لا ترجعك هذه الجملة، لكن ماذا تفهم منها؟

ك. ل. ش: ينبغي في البدء معرفة ما كان ميترو يقصد بها، لم تتناول مباحثاتنا ذلك أبداً. إنني أسلم بأن بعض المواقف العقلية قد تكون أكثر انتشاراً عند اليهود من غيرهم.

د. /: مثلاً؟

ك. ل. ش: تلك الناتجة عن الشعور العميق بالانتماء إلى جماعة وطنية مع وجود أشخاص في قلب هذه الجماعة يرفضونك (أو أفقك أن عددهم ينقص تدريجياً) وهكذا يبقى المرء بحالة حذر يرافقها شعور غير منطقي بوجوب الالتزام بعمل أكثر من الآخرين لتهدئة الانتقادات الكامنة. ولا أستنكر أن يسبب هذا كدراً. لقد وصف غوبينو -الذي لم يكن معادياً للسامية- العقل اليهودي بأنه باحث بطبيعته محب لامتلاك كنوز هذا العالم «كنوز العلم كما كنوز الذهب» وأتخيل أن ميترو كان ينسب إليّ النوع الأول من هذا الحب.

د. /: على أي حال، لم تضطلع بأعباء يهوديتك ولم تؤكد لها .

ك. ل. ش: بالنسبة لوالدي لم تكن اليهودية إلا ذكرى. وقد ترددت طويلاً قبل الذهاب إلى إسرائيل. لأن استعادة احتكاك فيزيائي مع الجذور تشكل تجربة مربية.

د. /: متى ذهبت إلى إسرائيل؟

ك. ل. ش: عام 1984 - 1985. حيث دعاني متحف إسرائيل لرئاسة تجمع دولي حول الفن (وسيلة الاتصال في المجتمعات دون كتابة).

د. /: بماذا شعرت؟

ك. ل. ش: عرفت في نفسي اليهودي وراقت لي أقدمية الدم كما كان يقال فيما مضى. وعلى الأرض وأكثر من أي وقت مضى، أوقعتني حل عقدة الاستمرارية في اضطراب كبير. فبين الخروج من فلسطين وبداية القرن الثامن عشر (حيث وجدت أسلافي مستقرين في الألزاس) يوجد حوالي ألفا عام. ماذا حدث في هذا الفاصل الزمني؟ إن التعاقب التاريخي لهذا الاغتراب ينقضي وكذلك المراحل المتخيلة له. وكنت بحاجة إليهما للشعور بواقعية الرابط مع ماضٍ سحيق جداً ويقتصر على معرفة مجردة. وأقول لك إنني لم أملك الانطباع أبداً - وأنا في إسرائيل - بلمس جذوري عيانياً. لقد اهتممت بإسرائيل بشكل خارق ليس لأنني وجدت فيها شعباً من أولاد عمومتي (فأنا لا أمتلك شعوراً عائلياً) بل لأن إسرائيل تشكل رأس جسر للغرب في الشرق. إنها الحملة الصليبية الجديدة إذا أردت.

د. إ.: ذكرت منذ قليل رسالتك إلى ريمون أرون التي تقارن فيها بين وضعية الفلسطينيين ووضعية الهنود الحمر...

ك. ل. ش.: إنها وضعية خلقها التاريخ وأصبحت عملياً بلا مخرج، دون إمكانية للحسم في أي اتجاه باسم مفهوم مجرد للحق أو العدل.

د. إ.: في الرسالة نفسها تركز جملته الجنرال دوغول حول دولة إسرائيل «وأنه من نفسها ومهيمنة»، وتندد بالمواقف التي تبناها رؤساء الطائفة اليهودية الفرنسية الذين -كما تقول- أساءوا استخدام امتيازاتهم كي يقوموا بترويج الشائعات. كانت عباراتك قاسية جداً.

ك. ل. ش.: كانت رسائلي تأخذ طابع محاوراة من دون تكلف. وعندما طلب مني أرون نشرها رضخت لأنني شعرت بأنني لا أمتلك الحق في الإضرار بالتوازن الذي يريد إعطاء لعمله. ولو أنني كتبت بهدف النشر لراقبت تعابيري أكثر.

على أية حال، عد إلى النص، لم أكن أطبق مقولة الجنرال على دولة إسرائيل لكن على يهود فرنسا البارزين الذين أعطوا لأنفسهم حق التحدث باسم الجميع. وكل هذا قديم: منذ عشرين عاماً خلت! لقد صدمني الدخول الكثيف لمجموعات الضغط في الأحداث، ويجب أن نعرف أن التعبئة تتم اليوم في الاتجاه الآخر.

د. إ.: كانت عباراتك قاسية لكنها خاصة، فأنت لم تدل بتصريح جماهيري. ولولا نشر ريمون أرون لمقتطف من رسالتك لما عُرف موقفك. ألا تحب تبني موقف على الملأ؟ أليس مفكراً ملتزماً؟

ك. ل. ش.: لا. أعتقد أن سلطتي الفكرية (بقدر ما يُعترف لي

بذلك) تركز على مجموع العمل وعلى روادع الصرامة والدقة التي جعلتني -ربما- أمتلك حق الإصغاء إليّ في ميادين محددة، ولو استبقت الأحداث للحكم على قضايا لا أعرفها أو لا أعرفها جيداً، فإنني أقترف بذلك إفراطاً في الثقة.

د. ل. ش: **إلا تروق لك صورة المفكر الملتزم كما ظهرت في فرنسا مع**

قضية دريفوس؟

ك. ل. ش: كان بعض مفكري القرن التاسع عشر يعيشون على تقليد يمتد حتى فولتير. وكان بإمكان شخص مثل فيكتور هيجو الاعتقاد بأنه قادر على الحكم في كل مسائل عصره. إن هذا لم يعد ممكناً اليوم. فالعالم أصبح معقداً جداً وعدد المتحولات في كل حالة خاصة كبير جداً. اللهم إلا إذا قرر المرء التخصص في معالجة نمط محدد من المسائل كما فعل آرون بتكريس نفسه لدراسة المجتمع المعاصر. وهذا رأي مشروع، لكن من المستحيل أن يقوم المرء في الوقت نفسه - بما قام به آرون وبما قمت به أنا، وعليه أن يختار.

د. ل. ش: **إلا تهتم بالسياسة؟ ألا تقرأ الصحف وتشاهد التلفزيون؟**

ك. ل. ش: قليلاً ما أشاهد التلفزيون وإلا فمتى سأقرأ؟ بالنسبة للبقية نعم، أحاول أن أمتلك حول السياسة معارف نزيهة. وأنا أقرأ يوميتين وثلاث أسبوعيات.

د. ل. ش: **هاجمك أحد الكتاب حديثاً بقوة حول هذه المسألة. فهو**

يذكر رفضك لتبني موقف حول كالدونيا الجديدة بحجة أنك لم تذهب إليها أبداً. ويواجهك بموقف زولا في قضية دريفوس، مؤكداً أن

زولا هو أيضاً لم يكن خبيراً فيها لكن هذا لم يمنعه من التحرك لأجل قضية عادلة⁽⁴⁸⁾.

ك. ل. ش: يدهشني هذا القول. لم يكن زولا خبيراً بقضية دريفوس؟ وحالما علم بالأمر قفز إلى الصفوف الأولى! إن عمل زولا بأكمله مكرس للملاحظة ووصف وتحليل المجتمع المعاصر والدفاع عن قيم الحقيقة والعدالة وفصل الناس الشرفاء عن غيرهم. وكان كل هذا يهيئه للاهتمام بالقضية، كان بإمكانه ابتداعها كموضوع لرواية.

ثم ما القاسم المشترك بين الدفاع عن بريء والسعي المتأني والصعب للتحكيم في مصالح سياسية واقتصادية، ومطالب لا يمكن محو أي منها بجرة قلم؟ فهذا البحث يجب أن يركز على معرفة متمقة بالناس وبالوسط وبالحلول المقدمة لقضايا مماثلة مطروحة في المنطقة نفسها من العالم.

إن فكرياً نسقياً لا يمكنه البت في هذه القضايا. والإثنولوجي يجب أن يظهر تحرجه، خاصة إزاء موضوع كهذا يمس عن قرب مادته. لم أذهب أبداً إلى كاليدونيا الجديدة ولا إلى الجزر الأخرى في بحار الجنوب، وأنا أنتمي إلى نظام تشكل الملاحظة المباشرة مبدأه الأساسي. ولو كانت القوى الشعبية تهتم بما يمكن أن أقول حول كاليدونيا الجديدة، لسافرت إليها عن طيب خاطر بشرط أن أضمن قبولي. وعندئذ سيتحتم عليّ أيضاً أن أرى ما يحدث في ساموا وفي فيجي وفي ميلانيزيا...

سأعترف لك بأنني بعد «المدارات الحزينة» تخليت للحظات أن صحيفة ما ستعرض عليّ القيام بتحقيق كبير. ولو حدث هذا لكان لديّ رؤى أكثر وضوحاً عن بعض المسائل المعاصرة.

د. /: من المؤسف أن أحداً لم يعرض عليك ذلك .

ك. ل. ش: كلا، فلو عُرِضَ عليّ ذلك لما كتبت الكتب عينها بالتأكيد. ولإنهاء هذه النقطة، اسمح لي أن أقول إنني أَدْخَلْتُ كثيراً في قضايا أعتقد -عن صواب أو عن خطأ- أنني مؤهل للخوض فيها، لكني لا أجد حاجة للصراخ بذلك فوق الأسطح.

د. /: مثلاً؟

ك. ل. ش: الدفاع عن الثقافات الهندية الأمريكية وحمايتها. لقد ذهبت العام الماضي -بتفويض- إلى مكتب وزير مقاطعات خلف البحار للتحدث عن غويانا.

د. /: في خطاب دخولك إلى الأكاديمية الفرنسية تذكر جملة مونترلان «ليس الشباب بحاجة إلى معلّم للفكر بل إلى معلّم للسلوك» هل أنت معادٍ لمعلّمي الفكر؟

ك. ل. ش: إنه دور يحكم بتضليل عالمه إلا إذا كان المرء قديساً. وحتى...!

د. /: إنك تصنّف أحياناً كمعلّم فكر؟

ك. ل. ش: يقال حالياً إنه لم يعد ثمة معلّمو فكر. ويبدو لي هذا صحيحاً.

د. /: لقد أضفت إن بصيرة مونترلان كانت نبوية عندما قال إن المجتمعات تدفع غالباً جداً ثمن تكوين الشباب ككيان منفصل.

ك. ل. ش: إن هذا دليل على أن الأجيال لم تعد واثقة من قيمها. وأنا أرى هنا شكلاً من أشكال الاستقالة من قبلها.

د. إ: *«لا تعتقد بأن من الممكن اللجوء إلى الشباب لإصلاح هذه*

القيم؟

ك. ل. ش: تحافظ المجتمعات على نفسها لأنها قادرة على نقل مبادئها وقيمها من جيل لآخر. وتصبح هذه المجتمعات مريضة بدءاً من اللحظة التي تشعر فيها أنها غير قادرة على نقل شيء، أو لا تعرف ماذا تنقل، أو تعتمد على الأجيال اللاحقة.

د. إ: *«وانتهيت خطابك موضحاً أن تشاؤماً جذرياً كتشاؤم*

مونترلان قد يمثل الوسيلة الوحيدة لإعادة حظوظ تفاؤل معتدل. هل تترجم هذه العبارة موقفك فعلاً؟

ك. ل. ش: لقد قلت غالباً إننا إذا أردنا أن نعيد لإنسانية معتدلة حظوظها، فيجب على الإنسان أن يخفف من غلوائه ويقتنع بأن مروره على الأرض (الذي سيعرف نهاية على أية حال) لا يعطيه كل الحقوق.

د. إ: *«أي لا شيء»، إنَّ الجمل الأخيرة من «الإنسان العاري»*

التي شكلت كلمة «أسطوريات» الأخيرة قد أثارت جدلاً طويلاً حول «تشاؤمك».

ك. ل. ش: وبشكل خاص لم يلحظ أن هذه الصفحات الأخيرة استمدت إلهامها من خاتمة «بحث حول لا مساواة الأعراق البشرية» لغوبينو. هاهو الكتاب أمامي، اسمح لي أن أفتحه... هاك «بتوقفنا عند الأزمنة التي ستسبق آخر نفس لنوعنا، وبصرفنا النظر عن هذه العصور التي يجتاحها الموت، حيث ستستمر الأرض الصامتة عندئذ برسم دوائرها الباردة لكن من دوننا... الخ» ألا يوحي لك ذلك بشيء؟

لقد أردت أن أدخل في آخر جملة كلمة «باردة» كـ«توقيع» لغويينو.
وقد يوجد في كتبي اقتباسات أخرى مقنعة.

د. د.: لم يلحظ أحد ذلك، ربما لأن اخذك عن غوبيينو ينطوي
على مفارقة. فصورته لم تكن إيجابية خاصة فيما يتعلق بالمسألة
العرقية. هل هو من كتابك المفضلين؟

ك. ل. ش: ربما كان غوبيينو الإنسان مشبعاً بتحيزات عرقية،
وهذه حال الكثير من الأشخاص آنئذ، إنه لا يميز بوضوح بين مفهوم
العرق ومفهوم الثقافة، وكان هذا هو الأمر السائد آنذاك. وإذا
تجاوزنا المقاطع التي توجّه فيها التحيزات فكره (يذهب البعض إلى أن
عرقية غوبيينو متقطعة وتظهر على دفعات)، وإذا وافقنا على
استبدال كلمة «عرق» أينما وجدت بكلمة «ثقافة» فسنتعرف فيه على
مفكر أصيل وعميق إضافة لكونه كاتباً كبيراً لمؤلفات مثل (الثريا)
(ذكريات السفر) و(قصص آسيوية) و(ثلاث سنوات في آسيا). إنه
أفضل من فهم أن قراءات التاريخ بمستويات وقتية مختلفة لا تتضافر
بل يلغي بعضها بعضاً. وقد حاولت صياغة ذلك في الفصل الأخير من
«الفكر البدائي». لا يتطلب نظام غوبيينو أن تكون الثقافات الأصلية
غير متساوية في البدء بل يكفي طرحها مختلفة، وهذا ما فعله غالباً
(إن الثقافات «الأصلية» عنده فرضيات نظرية) لقد كان -فحسب-
ينحني لكل معاصريه أمام النجاح التاريخي للغرب وكان عليه أن
يحتال على حدسه البدئي لتجاوز ذلك. ولو فكرت في هذا فستجد
أنه العقبة الدائمة التي ترى حتى النسبوية الثقافية صعوبة كبيرة في
اجتيازها.

د. د.: إن إنهاء سلسلة من الكتب كـ«أسطوريات» بهذا التأكيد

المخيب للأمل («لا شيء» يبقى من مشاريع البشر) هو تقريباً إعلان بيان فلسفي. وقد أراد البعض أحياناً رؤية هذا الـ«لا شيء» كتعبير عن فلسفتك العميقة.

ك. ل. ش: أنا لم أقل ذلك. لقد قلت: يجب على الإنسان أن يعيش ويعمل ويفكر ويتحدى بالشجاعة، مع معرفته تماماً أنه قد لا يبقى موجوداً على الأرض إلى الأبد، وأن هذه الأرض ستوقف يوماً عن الوجود، وعند ذلك لن يبقى من أعمال البشر أي شيء. إن الأمرين مختلفان تماماً. تستند فلسفتي العميقة -كما قلت- إلى التعارض التالي وتنحني أمامه: فمن جهة أؤمن بالمعرفة العلمية ويسحرنني كل ما أتعلمه من الفيزيائيين والبيولوجيين، ولا شيء يثير تأملي مثله، ومن جهة ثانية يبدو لي أن كل مسألة محلولة أو نعتقد أنها كذلك، تثبتق منها مسائل جديدة وهكذا إلى ما لا نهاية، لدرجة أننا نفتتح يوماً بعد يوم بأن قدرتنا على التفكير لا تفي ولن تفي الواقع حقه وأن الطبيعة العميقة لهذا الأخير تفلت من كل جهد للتصور. إن كانط هو من علمنا ذلك في البدء. لكن كانط (الذي كان يتكيف مع سلطة معرفية عاجزة بشكل لا براء منه بفعل النقائص antinoinies) أمل أن يجد في الحياة الأخلاقية أساساً مطلقاً. إنني بإفراطي في الكانطية (إذا صح التعبير) أضمت الحياة الأخلاقية إلى إشكالية العقل المحض: فهي أيضاً لها نقائصها التي يستحيل تجاوزها. والأكثر من ذلك: إن المعرفة العلمية تجعلنا نفتح على رؤى أكثر إبهاراً مما كان يتخيل باسكال. وبذلك تبرهن لنا على لا معناها. إن انقراض البشر أو اختفاء الأرض لن يغير في شيء مسيرة الكون. ومن هنا مفارقة نهائية: لسنا متأكدين من أن هذه المعرفة التي تكشف لا معناها تمتلك أية صلاحية. نحن نعرف أننا لا شيء أو لسنا شيئاً كبيراً وبمعرفتنا

ذلك لا نعرف ما إذا كانت هذه المعرفة تمثل هي أيضاً شيئاً كبيراً. والتفكير بأن الكون لا يمكن قياسه بالفكر يُجبر على وضع الفكر نفسه موضع الشك. ولا يتم الخروج من ذلك.

إذاً، هي الشكية الجذرية التي يبدو أنك تتهمني بها؟ إطلاقاً. إننا محكومون بالانتقال من مظاهر إلى مظاهر لكن من المهم أن نعرف أن من الحكمة التوقف في مكان ما وأين. فبين مظاهر السطح والبحث المنهك عن معنى خلف معنى ليس هو الجيد أبداً، يبدو أن تجربة عدة آلاف من السنوات تُظهر وجود مستوى وسط، يمكن للبشر أن يأخذوا لهم مكاناً فيه لأنهم يجدون -هنا- راحة أخلاقية وفكرية أكبر، ويشعرون أنهم بذلك أفضل حالاً من أي مكان آخر، دون أن يبحثوا عن اعتبارات غير الاعتبارات اللذوية hedoniste: هذا المستوى هو مستوى المعرفة العلمية والفعالية الفكرية والخلق الفني. إذاً فلنمكث فيه بعزم يكفي لأن نؤمن به عند نهاية كل عملية، لكن مع توجيه إشارة فطنة من وقت لآخر -حتى لا نفقد رؤوسنا- إلى ورقة نعي تضم عالمنا وتضمنا معه.

د. ل. ش: هل تعرف أنك متهم أحياناً بـ «اللا إنسانية»؟

ك. ل. ش: سأجيبك بالقول إن إنسانية جيدة التنظيم لا تبدأ بالإنسان نفسه. فالإنسانية الغربية حرمت الإنسان من غطاء واقٍ بعزله عن بقية المخلوقات. ومن اللحظة التي لا يعرف فيها الإنسان حدوداً لسلطته ينتهي إلى تدمير نفسه. وها نحن نرى معسكرات الإبادة والتلوث (وهو تدمير على مستوى آخر وبطريقة خادعة لكن مع نتائج مأساوية على الإنسانية جمعاء).

د. إ: حاول بعض الكتاب والصحفيين -حديثاً- أن يقيموا رابطاً بين رفض فلسفة الذات واللائسانية واعتبروا أن فلسفة الذات وحدها هي القادرة على تأسيس سياسة لحقوق الإنسان.

ك. ل. ش: نجد أنفسنا أمام مثل هذا الجبل من سوء الفهم لذلك لن أسرع في تبديده فقد يلزمني من الوقت أكثر مما يستحقه هذا النوع من الاعتراضات. لقد كرسنا -أنا نفسي- بضع تأملات لحقوق الإنسان في نص شكل الفصل الأخير من «النظرة البعيدة»: وهو في الأصل عرض أمام لجنة برلمانية بناء على طلب من رئيس الجمعية الوطنية.

لقد استطاعت البنيوية دون أن تكون فلسفة ذات أو حتى فلسفة، أن تواجه هذا النوع من المسائل، إنها قادرة -ربما- على الخروج من الدروب المطروقة لتعطي إجاباتها الخاصة. لقد اقترحت تأسيس حقوق للإنسان، لا كما تم فعله منذ الاستقلال الأمريكي والثورة الفرنسية (أي على الخاصية الفريدة والتميزة لنوع من الأحياء) بل على أن نرى فيها حالة خاصة من الحقوق المعترف بها لجميع الأنواع. وقلت لنفسي: بالذهاب في هذا الاتجاه قد يمكن الحصول على إجماع أوسع مما يحصل عليه مفهوم ضيق لحقوق الإنسان. فبذلك قد نلاقي في الزمان الفلسفة الرواقية، وفي المكان فلسفات الشرق الأدنى. وقد نجد أنفسنا -حتى- في مستوى واحد مع الموقف العملي الذي تتخذه إزاء الطبيعة الشعوب المدعوة بدائية (أي التي يدرسها الإثنولوجيون) دون نظرية واضحة أحياناً لكن بممارسة تعاليم لها النتيجة نفسها.

د.إ: إنك ترفض هذا الامتياز الممنوح للنوع البشري على بقية الأنواع، وانفراد الإنسان هذا مع نفسه، ولذلك كانت عباراتك قاسية في «خاتمة» الإنسان العاري حول فلسفة الذات والوعي الخ...

ك.ل.ش: ومرة أخرى، أقر تماماً بوجود اهتمامات أخرى غير اهتماماتي، فالوصف والتحليل يمكن أن يتما على مستويات مختلفة أعتبرها جميعاً مشروعة. ومالا يمكن تحمله -كما يبدو لي- في هذه الخصومة حول «الذات» هو تشدد المخلصين لفلسفة تقليدية تمتد حتى ديكرت. فكل شيء عندهم يبدأ بالذات ولا يوجد سوى الذات و.. الخ... لقد أردت تناول الأمور من زاوية أخرى ولا أفترض أن أحداً ينكر علي هذا الحق.

د.إ: في تلك الفترة رفضت الفلسفة التقليدية بقوة أكبر.

ك.ل.ش: لأنها طالبت بأن يكون لها حق حصري. وتحتم النضال لمنافستها على مكان تحت الشمس. وكان الصراع سينتهي بمجرد أن تقنع بكونها مقاربة من المقاربات.

الفصل السابع عشر

الأدب

د. ل. ش: من خلال قراءة النصوص التي كرستها للأدب، يظهر غالباً أنك بعيد عن النقد الأدبي البنيوي؟

ك. ل. ش: إنني بعيد عن النقد الذي يتخيل نفسه بنيوياً، والذي يستخدم كلمة «بنية» استخداماً تعسفياً و«يلصقها على أي نوع من البضائع». وأشعر أنني ضحية احتيال فكري عندما تتم المطالبة بوضع نتائج هزيلة في صف الروائع عبر اختيارها موضوعاً للدراسة، وهذا ما يحدث غالباً (ففي الروائع ننشد العبر). هذه البنيوية المزعومة ليست في الواقع سوى حجة للرداءة. وقد أفصحتُ عن ذلك في «خاتمة» الإنسان العاري.

د. ل. ش: هل تعتقد بوجود تراتبية *hierarchie* للأعمال؟

ك. ل. ش: إذا أردت أن أجري تحليلاً بنيوياً لعمل أدبي فإنني سأختار شعر بودلير لا أقوال كاتب أغان.

د. ل. ش: هذا مسلّ جداً، فقد اعتبرتك رسالة هجاء صغيرة واحداً

من المحرضين على حركة تعمل على إلغاء التراتيبات بين الأعمال الثقافية⁽⁴⁹⁾.

ك. ل. ش: لم أقرأ هذا الكتاب ولا أعرف عنه إلا ما كتب في الصحف.

د. إ: لكن ما رأيك بأنك متهم بالإسهام بإلغاء التراتيبات بسبب نصوصك حول النسبوية الثقافية؟

ك. ل. ش: يجب عدم الخلط بين معنيين لكلمة ثقافة. فهي في معناها العام تدل على الإغناء النير للحكم والذوق. أما في اللغة التقنية للإنشروبولوجيين فتعني شيئاً آخر. وحسب التعريف الكلاسيكي لتايلور الذي أستطيع استظهاره لأهميته الكبيرة بالنسبة لنا «الثقافة هي المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والتقاليد وكل الكفاءات الأخرى والعادات التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع». في الثقافة -بالمعنى الثاني- كل شيء هو موضوع للدراسة: أي النتاجات الأكثر انحطاطاً (بالمعنى الأول للكلمة) كما النتاجات الأكثر رفعة. وتكتفي النسبوية الثقافية بالتأكيد على أن ما من ثقافة تملك معياراً مطلقاً يسمح بتطبيق التمييز السابق على نتاجات ثقافة أخرى. وبالمقابل تستطيع كل ثقافة بل ينبغي عليها فعل ذلك فيما يتعلق بإنتاجها. لأن أعضاء هذه الثقافة هم -بالنسبة إليها- ملاحظون وعوامل في الوقت نفسه.

فأنا من موقعي كعامل agent لا تجذبني الرسوم المتحركة أو الروك إطلاقاً، أما كملاحظ فأرى في شيوع هذين النوعين ظاهرة سوسيولوجية يجب دراستها كما هي بغض النظر عن حكم القيمة الأخلاقي والجمالي الذي أكونه حيالها. وإطلاق تعبير «ثقافة الروك»

أو «ثقافة الرسوم المتحركة» هو تحويل معنى كلمة ثقافة إلى معنى آخر، واقتتراف اختلاس فكري. لكن الرأي المقابل (أي اتهام الإثنولوجيا بإفساد الفكر الشعبي لمجرد أنها حددت أو تحدّد لها هذا الحقل من الدراسة) يشبه إلى حد بعيد اتهام العاملين في مختبرات التحاليل الطبية بأنهم مصاصو دماء أو أنهم مولعون بالبراز.

د. /: تحدثت عن بودلير. هل كنت تلمّح إلى تحليل مقطوعته الشعرية sonnet الذي قمت به مع جاكوبسون⁽³⁰⁾.

ك. ل. ش: نعم. ذات يوم، في باريس، عرض عليّ جاكوبسون أفكاره حول التحليل البنيوي للشعر. وأعطاني أمثلة إنجليزية وروسية وألمانية وأضاف إن حالة الشعر الفرنسي تربيكه. وقد أثارتني أفكاره كثيراً لدرجة أنني رفضت الاعتقاد بأن من غير الممكن تطبيقها هنا أيضاً. بعد ذهابه، بدأت «القطط» -وهي من الأشعار النادرة التي أحفظها غيباً- تجول في رأسي. وبدأت شيئاً فشيئاً ترسم الخطوط الأولى لتأويل ضمن الخط الذي رسمه جاكوبسون. وهكذا انشغلت في تحليل أجرو بتحفظ على تسميته ألسنياً -لقدر ما كان ساذجاً وأخرق- وأرسلت إلى جاكوبسون نتيجة تأملاتي. وقد حرصه ذلك فقام بالمحافظة على عناصر تحليلي وتصحيح بعضها وإضافة الكثير. وتتابع مراسلاتنا حول هذا الموضوع. وعندما عاد إلى باريس جلسنا ذات صباح على هذا المكتب. أمسكت بالقلم وكتبنا سوية مقيمين ومناقشين كل كلمة، واستمر ذلك طيلة النهار.

د. /: ألم يكن لهذا الفصل تنمة؟

ك. ل. ش: لست ألسنياً، ولم أكن أستطيع وحدي متابعة هذا

النوع من التجارب. أما جاكوبسون فقد استمر ونشر تحليلات أخرى لأشعار أخرى ودائماً بالروح نفسها.

د. ل. ش: بما أننا نتحدث عن الأدب، هل يمكن أن تقول لي من هم كتابك المفضلون؟

ك. ل. ش: كونرا، كما قلت سابقاً، وبلزك وشاتوبريان... وبروست بالتأكيد وروسو.

د. ل. ش: عندما تذكر شاتوبريان، تقصد به شاتوبريان «فكرات ما وراء الموت» على ما اعتقد؟

ك. ل. ش: نعم. ولكننا نجد عنده رؤى أخاذاة حتى في كتاب متباين ومضجر غالباً مثل «عبقرية المسيحية».

د. ل. ش: وبلزك؟ بعض فصول «أسطوريات» عناوينها «فصول الحياة الخاصة» أو «فصول حياة الريف»..

ك. ل. ش: لقد قُدر لي أن أقرأ جميع أعمال بلزك عدة عشرات من المرات، وبما أن ذاكرتي غير ثابتة فقد كنت في كل مرة أشعر أنها المرة الأولى. ولم تكن تمر عدة سنوات دون أن أعود إليه.

د. ل. ش: أية رواية تفضل؟ القريب بون؟

ك. ل. ش: قد يكون ثمة مئة سبب لتكون روايتي المفضلة، لكن «عكس التاريخ المعاصر» تأسرني. فهنا يقترب بلزك من ديكنز الذي أصنّفه أيضاً من بين كتابي المفضلين («الآمال الكبرى» من أجمل الكتب التي أعرف). إنني أسمع عند ديكنز كما عند بلزك وخاصة في

«عكس التاريخ المعاصر» جرساً أنا حساس له بشكل خاص: إنه جرس المدني الرائع.

د.إ: هل يمكن تصنيف روسو من بين الكتاب الذين أثروا فيك

فكرياً؟

ك. ل. ش: عن روسو أقول كما عن ألبير «لا يقنعني لكنه يحركني». ويضاهي ميلي إلى فكره السياسي انبساطي بجمال بنائه. إن إعجابي بروسو جماليّ قبل كل شيء: يا للأسلوب! إنه يقول في خمس كلمات ما قد يحتاج مني خمس عشرة كلمة. وفيما بعد تأتي كل أشكال الاعتبارات الأخرى المعقدة لدرجة أنني أجد صعوبة في توضيحها. إن روسو من أوائل من تكهن بمستقبل الأبحاث الإثنولوجية، كما أراد تقريب العلوم الطبيعية من الأدب. وقد جعل منه قدر خارج عن المؤلف ملاحظاً يتمتع بحساسية شديدة. إنه يبحث في كل أعماله عن وحدة المحسوس والمعقول intelligible الأمر الذي حاولت -أنا نفسي- القيام به عبر طرق أخرى، متناولاً الأمور من الطرف الآخر: أي عبر أولية primat العقل بدلاً من الإحساس، لكن الحاجة إلى نوع من إعادة التوفيق بينهما هي عينها عند كلينا.

لقد قلت في مقابلة سابقة إن ماركس هو أول من طبق منهج النماذج في العلوم الإنسانية، وربما يكون من الأصح ردّ هذا الفضل إلى روسو في «خطاب حول أصل اللامساواة»، رغم أن نماذجه بقيت أيضاً بعيدة جداً عن أن تتلاقى مع الواقع. لقد جعلني «اعترافات» أعيش في مجتمع مندثر موصوف بالحدة والغنائية الرصينة ذاتهما الموجودتين في لوحات شاردان أو درولنغ. أخيراً «هيلوثيز الجديدة» التي لا يقرؤها أحد في حين أنها أول رواية حديثة تماماً (كانت مدام

دولافاييت قد خلقت جنساً روائياً ما)، تذكر: فتاة من عائلة طيبة لها عشيق، تم تزويجها من رجل كبير السن. وقد حكى له كل شيء فلم يكن منه إلا أن أسرع وأسكن العشيق في المنزل العائلي مسبباً البؤس للجميع. ولن نعرف أبداً هل تصرف على هذا النحو بدافع سادي، أو مازوخي، أو باسم أخلاق ضبابية أو أنه ببساطة تصرف بحمق، إن علاقة كهذه بين الكاتب وشخصياته لا تتكشف فيها الخيوط وتبقى غُبيشة كما هو الحال في الحياة، سنجدها فيما بعد عند دوستويفسكي وعند كونرا. ويدخل الكاتب كل هذا -كما في «أحلام اليقظة»- عبر إحساس قوي بالطبيعة... هأنت ترى، روسو يحركني!

د. ل: لكنني كنت أقصد التأثير الفكري لأن عنوان إحدى محاضراتك «روسو مؤسس علوم الإنسان» وقد نُشرت في الجزء الثاني من «الإنثروبولوجيا البنيوية».

ك. ل. ش: أقيم احتفال مهيب في جنيف بعيد ميلاده الخمسين بعد المئتين، ولذلك كان فيما قلت شيء من المبالغة دون أن يكون خاطئاً تماماً.

د. ل: جاء في هذه المحاضرة «كل إنثولوجي يكتب اعترافاته». إذ يجب أن يمر عبر الأنا كي يتخلص من الأنا. لكنك تؤكد دائماً عدم امتلاك إحساس بالهوية الشخصية للأنا.

ك. ل. ش: لا أرى هنا تناقضاً. إذا لم يكن لدينا هذا الشعور بالهوية الشخصية ينبغي بذل المزيد من الجهود لكي نستعيد أنفسنا كأَنوات عند الخروج من وضعيات استثنائية. إن التجربة الإثنوغرافية تتضمن بحثاً تجريبياً عن شيء ما يفلت منك. ولو كنت أعرف جيداً ما أكون، فلن تكون بي حاجة للبحث عن نفسي في مغامرات غريبة.

د. /: أنت لا تعرف ذلك؟

ك. ل. ش: بشكل سيء جداً.

د. /: هل هذه سمة خاصة بك أم أنها سمة للفكر البشري؟

ك. ل. ش: أنا لا أتباهى بالتفرد. يبدو لي أن المجتمع هو الذي يفرض الشعور بالهوية الشخصية...

د. /: ويدفع أحداً ما إلى توقيع كتبه بـ «كلود ليڤي - شتراوس من الأكاديمية الفرنسية»؟

ك. ل. ش: نعم، هو الذي يريد أن تكون «أحداً ما»، لكي يجعل هذا الـ «أحداً ما» مسؤولاً عما يفعل وعما يقول. ولو لم يكن هذا الضغط الاجتماعي موجوداً لما كنت متأكداً من أن إحساس الهوية الشخصية سيكون قوياً للدرجة التي يعتقد معظم الأشخاص أنهم يشعرون بها.

د. /: عودةً إلى روسو: لقد نُسب إليك في وقت ما مشروع تأليف كتاب عنه.

ك. ل. ش: راودني ذلك، لكنني رفضت الفكرة بسرعة لسببين: السبب الرئيسي هو أن أدباً روسوياً ضخماً ظهر منذ سنواتي الدراسية كطالب. ولكي لا أرتكب أخطاء جسيمة أو أقتحم أبواباً مفتوحة، كان عليّ أن أجرد عشرات الأعمال التي ظهرت في الخمسين سنة الأخيرة. وكان هذا يرعبني.

والسبب الثاني: علاقتي بروسو ملتبسة. لقد جعلني فرويد وماركس أفكر. أما روسو فقد جعلني ألهب. ولذلك كنت سأجد

صعوبة في الفصل بين الذاتي والموضوعي. وأضيف هنا أن موقفی منه قد تطور. أو على الأقل تنیر المكان الذي اتخذه عمله في حیاتی: فقد ابتعدت عنه أو على الأقل عن فكره السياسي منذ سنوات التزامي الاشتراكي.

د. ل. ش: لأية أسباب؟

ل. ش: «العقد الاجتماعي» كتاب صعب. وربما هو الأصعب من بين كل الفلسفات السياسية. لقد ابتعدت بقدر ما استطعت عن تلك المراجعة المباشرة بين الفرد والجماعة collectivite التي أراد تكريسها، وعن رفضه لأي وسيط بينهما. في حين أن هذه الوسائط هي التي تعطي -برأبي- لحماً ودماً للحياة الاجتماعية.

الفصل الثامن عشر

محتوى الرسم

د. ل. ش: «أساطيريات» مزين برمته برسوم وصور ملونة ومخططات...

ل. ش: من نوعين. فالأساطير تستخدم كل أشكال الحيوانات والنباتات الغريبة، لذلك يجب تقديم إيضاحات عنها إلى القارئ، وقد اخترت في الغالب صوراً قديمة تعود إلى فترات لم يكن فيها علم الحيوان وعلم النبات قد انفصلا عن الفولكلور. وبدا لي ذلك أكثر شاعرية ويجعل فهم الأساطير أكثر حيوية.

من جهة ثانية، أردت تسليط الضوء على تحولات معقدة جداً، ولم أتمكن من تصورها إلا عبر عمل يدوي إضافة إلى العمل الفكري. فكنت أبني باستخدام الورق والورق المقوى والخيوط نماذج ثلاثية الأبعاد كان الكثير من مخططاتي إسقاطاً لها. إن أحد هذه النماذج ويبلغ ارتفاعه قرابة المتر بقي معلقاً إلى سقف مختبر الإنثروبولوجيا الاجتماعية عدة أشهر حتى تلف.

د. ل. ش: حتى أن غلاف الجزء الأخير من «أسطوريات» يحتوي على رسم توضيحي لبول دولفو.

ك. ل. ش: إنني معجب بفن دولفو منذ زمن طويل، وغالباً ما كنت أتساءل عند دراستي لأسطورة ما كيف يمكن أن يعبر عنها. وعندما أعلمته عن طريق وسيط برغبتي في أن يخرج لي غلاف «الإنسان العاري»، تكرم بقبول ذلك. ولقد أوحى له النص بتركيب جميل جداً لكنه، واقعي. ربما لم تكن ميثولوجياه الشخصية تلتقي مع ميثولوجيا الهنود الأمريكيين.

د. ل. ش: سبق أن ذكرنا علاقتك بالرسم العائدة إلى روابطك العائلية. لكنني أود أن أعود إلى سجال تلال نشر نصك حول «الصناعة المفقودة» منذ عدة سنوات، والذي عرضت فيه شكاويك من الرسم المعاصر⁽³¹⁾.

ك. ل. ش: لم تكن شكاوي! إن حالة معينة من الرسم تشكل جزءاً حميماً من ثقافتي ومن حياتي. وهي التي تمنحني انفعالات جمالية وتحرك فكري. لقد ظهرت حوالي القرن الثامن عشر واستمرت حتى بداية القرن العشرين. ما أتى بعد ذلك ينتمي إلى حالة أخرى. وأنا متأكد أنه لا يثيرني إلا نادراً وأحاول فهم أسباب ذلك.

د. ل. ش: يقول بودوير عن مانيه: «كان الأول في عجز فنه». ما رأيك؟

ك. ل. ش: كان مانيه رساماً كبيراً، ونجد عنده قطعاً مبهرة. لكن يُلاحظ في لوحاته شيء من الارتباك وكأنها لا تصل إلى هدفها تماماً. على أية حال، هو يسم نهاية حقبة وبداية أخرى.

د. ل: لو لم تكن تصريحاتك حول الرسم معروفة، لتخيلك المراء
بشكل عفوي- متأثراً بالانطباعيين.

ك. ل. ش: إنني أحبهم جداً. لقد أعادوا الحياة إلى فن كان
مههداً بفقر الدم. إضافة إلى أنهم رسامون كبار ويتقنون صنعتهم
جيداً. لكن هذا لا ينفي وجود تأثير ضار حمله نفورهم من أشكال
الرسم التقليدية وتشجيعهم المسرف لجمهرة من الأتباع ليس لها
معرفتهم أو موهبتهم. إن ما ندين لهم به لم يستمر أكثر منهم: حوالي
ثلاثين سنة.

د. ل: هل تعتقد أن «الصناعة» فقدت في ذلك الوقت؟

ك. ل. ش: لقد أعلنوا هم أنفسهم- ذلك. كان مانيه يقول:
يجب أن نرسم كما يفرد العصفور. وبذلك دفعوا أتباعهم إلى نسيان
الصناعة وجعلها وازدراؤها.

د. ل: عندما تحدثنا عن تاريخك الشخصي قلت إنك أحببت
الرسم المعاصر.

ك. ل. ش: لقد أحببته بشغف. عند عودتنا إلى باريس عام
1918 (بعد أن قضينا فترة الحرب في فرساي) أذكر أن أبي بدأ
جولات على المعارض الفنية. وقد أحبطه ذلك لأنه كان مخلصاً لتقليد
القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكان يصف لنا اللوحات التكعيبية
التي بدت لي كشفاً وعمري آنذاك لا يتجاوز عشر السنوات، وبهرني
أن من الممكن الرسم دون تجسيد، فعكفت على القيام بما تخيلت أنه
تكعيبية مستخدماً قصاصات الباستيل المبعثرة في الرسم. وبالطبع لم
يكن ذلك يمت للتكعيبية بصلة. وما زلت أرى تركيباتي الساذجة.

صحيح أنها لا تجسّد شيئاً، لكنها مسطحة، ببعدين، دون أي بحث عن الحجم.

فيما بعد، صرت أتردد بدوري على شارع لابويسسي. وطيلة مراهقتي كان الذهاب لرؤية آخر أعمال بيكاسو معروضة في الواجهات نوعاً من الحج بالنسبة لي: كأنتي أذهب لتأدية فرض ديني. في الفترة نفسها، منحني لويس فوكسيل (وهو ناقد ذائع الصيت كان صديقاً لأبي ويزورنا أحياناً) فرصة لأخطو خطواتي الأولى في مجلة فنية صغيرة أراد إصدارها (أو ربما إعادة إصدارها) وقد اقترحت موضوعاً لأول مقال لي: تأثير التكعيبية في الحياة اليومية، الأمر الذي لم يرقّ له إطلاقاً وهو العدو اللدود للتكعيبية. ولكنه قبل المقال مع ذلك. بدأت بلقاء مع فيرناند ليجهيه الذي كان يعجبني وقد استقبلني بلطف جمّ. ولم أعد أذكر هل نشر المقال أم لا؟

فيما بعد، حوالي 1929-1930، نشرت مجلة «وثائق» عدداً خاصاً تكريماً لبيكاسو احتوى على مقال بتوقيع جورج مونييه، النائب الاشتراكي الذي كنت سكرتيراً له: إنني أنا من كتب ذلك المقال. فلم يكن لمونييه الوقت أو الرغبة في ذلك.

د. ل: ما الذي أبعثك عن الفن الحديث؟

ك. ل. ش: إنني أنحني دائماً أمام عبقرية بيكاسو. غير أن هذه العبقرية -كما يبدو لي- انطوت على إيهامنا أن الرسم ما يزال موجوداً. وتحضرني الآن صورة: على الشواطئ المقفرة التي رمانا عليها تحطّم مركبة الرسم يجمع بيكاسو الحطام ويرمّمه.

د. ل: ألا تشترك لوحة لبيكاسو أبداً؟

ك. ل. ش: إن عمل بيكاسو واسع ومتفاوت. ثمة لوحات ناجحة بشكل مدهش.

د. إ: ألا ترى قرابة بين البنيوية والتكعيبية؟

ك. ل. ش: يمكن للتكعيبية أن تمثل مدخلاً إلى البنيوية، كما هو الحال عند جاكوبسون. لكن ذلك لا ينطبق عليّ. لقد غيرت التكعيبية نمطاً تقليدياً من التصور بوضعها في المقام نفسه تأثيرات المنظور واختلافات الإضاءة أو تفاوت القيم. لكنها إجمالاً لم تفعل سوى استبدال تقليد بآخر.

د. إ: أكدت في نصك أن محتوى الرسم ينبغي أن يكون خارج الرسم نفسه، وأعليت من شأن الفن اللامحدود للطبيعة. هل تدين إذاً كل رسم غير تصويري؟

ك. ل. ش: ربما تحت تأثير السرياليين. فيروتون لم يقبل أبداً هذا الرسم.

د. إ: رد الرسام بيير سولاج بجفاف شديد على طروحاتك في «الصناعة المفقودة» وأراد أن يقرأ في صياغتك بياناً ما للرسم التجسدي⁽³²⁾.

ك. ل. ش: أوافق على ذلك.

د. إ: يعترض عليك بأن صناعة الرسم لا تتضمن تجسيد شيء ما، لكنها تتضمن الشغل على الألوان.

ك. ل. ش: بالنسبة لي، لا تتضمن صناعة الرسم إعادة إنتاج الواقع، بل إعادة خلقه. إن الدقة التي كان رسامو الطبيعة الصامتة

الهولنديون في القرنين السادس عشر والسابع عشر مثلاً، يصوّرون بها تلاحم قطعة من الجبن أو شفافية كأس أو زغب فاكهة، تستمد قيمتها من أن تكافؤاً يتحقق بين التأثيرات الفيزيائية والعمليات الفكرية التي يفرضها عمل الرسم. وبهذا يقدم هذا الأخير نسخة معقولة Intelligible عن العالم المحسوس Sensible، ويساعدنا على فهمه من الداخل.

د. إ: ادعى سولاج أيضاً أنك لم تُبدِ إعجابك إلا بصغار رسامي القرن التاسع عشر!

ك. ل. ش: هذا غير صحيح، ففي «الفكر البدائي» قلت إن الرسام الذي اخترع كل شيء والذي ندين له برأس مال لم يفعل الرسم منذ ذلك الحين إلا قبض إراداته، هو فان ديرویدن. وأنا أطلب منه كما من الآخرين حملي على رؤية الواقع بأفضل مما أستطيع، ومساعدتي على فهم ما يحركني في مشهد العالم، وإشراك ملكاتي الحسية والمعرفية. أو أن يوصلني إلى نسق فوق واقعي لعالم كان واقعياً لكنه لم يعد موجوداً قط. وقد كتبت أيضاً نصاً يظهر فيه إعجابي بماكس إرنست، مما يثبت أنني لا أمتلك مواقف مسبقة ضد الرسم الحديث.

في حوار مع جورج شاربونييه⁽³³⁾ أخذت كمثال سلسلة المرافئ الكبيرة لجوزيف فيرنيه الموجودة في متحف البحرية. إنها ليست رسماً تافهاً بالتأكيد، فالتقنية مدعاة للإعجاب وفن التركيب أيضاً. حيث ينقلنا الرسم بوسائله الخاصة إلى عالم مندثر، والأروع أنه ينقلنا إلى عالم لم يوجد ربما، لأن الرسام لم يُعد إنتاج ما رآه بشكل أعمى بل أعاد تركيب عناصر منه تركيباً مطبوعاً بالغنائية. إن

مرفأ كبيراً لفيرنيه ليس بعيداً جداً عن أمسية في الأوبرا كما يراها بروسـت.

د.ل: يقـرن سولاج-ويشـكل أعنف- وجهـة نظرك حول الرسم الحديث بوجهـة نظـر الأنظمة الشمولية لأنك تتهم الرسام الحديث بالانحطاط.

ك.ل. ش: إذا كانت الشمولية في جانب ما، فسيكون الرسم المدعو طليعياً إلى جانب الجهاز التجاري والسياسي الضخم الذي يفرضه.

د.ل: ألا يجرحك أن يقارن خطابك بخطاب كان يتبناه الهتلريون؟

ك.ل. ش: قرأت في صيف 1987 في يومية مسائية مقالاً ضمن سلسلة تعود محاججتها -بشكل مبسط- إلى هذا: إن أعمدة بوران Buren جميلة لأن تمثل بلزاك الذي نحته رودان (الطليعي) قد تم انتقاده في حينه. لست قريباً من الخضوع لهذا النوع من الإرهاب الفكري. فالحجة السلطوية لا تؤثر بي أبداً، إضافة إلى أن من الممكن، إلى حد ما، الشك بأن يكون عمل رودان أثراً شعبياً.

كان النازيون يدينون فنون الطليعة باسم أيديولوجيا سياسية، وكانوا يشجعون عمارة ونحتاً ورسماً تثير في القرف. بالمقابل، هل علي أن أنبد بيتهوفن وفاغنر لأن هتلر كان يحبهما؟

لقد أعرضت عن رسم الطليعة لأسباب مختلفة: ارتباطي بمهارة لا تعوض، وهي أحد أكثر إبداعات الإنسان إدهاشاً عبر آلاف السنين، وترتبط بمفهوم ما لمكان الإنسان في الكون. إن المسائل التي يطرحها الفن -كغيرها من المسائل- ليس لها بعد واحد.

د. إ: يوجد شيء مما كنت تقوله عن حقوق الإنسان. فالرسم المعاصر هو نقطة النهاية لتيار يغلق الإنسان في انفراد مع نفسه.

ك. ل. ش: نعم، الفكرة التي مفادها أن بإمكان البشر أن يبدعوا إبداعات تساوي أو تفوق -حتى- إبداعات الطبيعة. سبق لسيروزيه وهو معاصر لغوغان أن كتب إلى مورييس دونيس أن الطبيعة تبدو له صغيرة وتافهة مقارنة بما يوجد في رأسه. لكن بتقديري، يجب على الإنسان أن يقتنع بأنه يحتل مكاناً صغيراً في مجموع الخلق، وأن غنى هذا الأخير يتجاوزه، وأن أياً من إبداعاته الجمالية لن تزاحم أبداً تلك التي يمنحها معدن ما أو حشرة أو وردة. إن عصفوراً أو خنفساً أو فراشة تستدعي مثل التأمل الخاشع الذي نحفظه لتينتوريه أو رومبران، لكن أعيننا فقدت طزاجتها، ولم نعد نعرف كيف نشاهد.

الفصل التاسع عشر

الموسيقا والأصوات

د. إ. في «افتتاح» أسطوريات رجعت إلى فاغنر، وقدمته على أنه الأب المؤسس لتحليل الأساطير. هل أردت تكريم الموسيقا كفن - فقد أهديت إليها المجلدات الأربعة - أو أردت تكريم موسيقا فاغنر معبراً بذلك عن علاقة أكثر حميمية بينه وبين عمالك؟

ك. ل. ش: لقد لعب فاغنر دوراً رئيسياً في تكويني الفكري وفي شغفي بالأساطير، رغم أنني وعيت ذلك بعد طفولتي عندما كان والداي يصطحباني إلى الأوبرا. لم يَبْنِ فاغنر أوبراه على الأساطير فحسب، بل اقتبس منها تقطيعاً يوضحه استخدام اللوازم Leitmotiv: إن اللازمة تمثل لبّ الأسطورة Mytheme. بالإضافة إلى أن تراكب اللوازم والشعر يحقق نوعاً من التحليل البنيوي، حيث تتداخل عبر الانزلاقات والانتقالات لحظات من الحكمة كانت ستتتابع -لولا ذلك- في الزمن فقط. هكذا تتزامن اللازمة (الموسيقية) والشعر (الأدبي) تارة وتستدعي اللازمة حدثاً ذا علاقة بنيوية مع الحدث الذي نشهده، سواء عبر التماثل أم التعارض، تارة أخرى.

لم أفهم كل ذلك إلا متأخراً بعد أن انطلقت جيداً في تحليل الأساطير، وفي وقت اعتقدت فيه أنني انفصلت كلياً عن الفاغنرية. لنقل إنني حضنت عمل فاغنر عدة عقود.

د. ل: تخترق العلاقة بالموسيقا كل هذا العمل الذي يبدأ جزؤه الأول بـ «فتتاح» وينتهي جزؤه الأخير بـ «خاتمة». وتركب فصول الجزء الأول على شكل «فوجات» Fugues (❖) أو «سيمفونيات».

ك. ل. ش: ثمة مستويان من العلاقة بالموسيقا في هذا الكتاب. الأول هو تنظيم الفصول كما أشرت. أما الثاني فيتجلى في أن مجموع العمل يطرح مسألة العلاقات بين هذين النمطين الكبيرين من التعبير: الموسيقى والأسطورة.

د. ل: هل يمكنك شرح ذلك؟

ك. ل. ش: في مرحلة من الحضارة الغربية ضُغِفَ فيها الفكر الأسطوري وتلاشى لصالح الفكر العلمي من جهة والتعبير الروائي من جهة ثانية. لقد حدث هذا الانقسام في القرن السابع عشر. لكن تلك الحقبة شهدت ظاهرة أعتقد أنها على علاقة وطيدة بذلك: هي ولادة ما ندعوه الشكل الموسيقي العظيم الذي استعاد بنى الفكر الأسطوري كما يبدو لي. لقد سقطت أنماط من الفكر في الإهمال لصالح نمط يُعنى بالتعبير عن الواقعي، لكنها بقيت موجودة في اللاوعي باحثة عن استخدام جديد. إنها لم تعد تشبك معاني بل أصواتاً. وهذه الأصوات المتشابكة على هذا النحو تكتسب عندنا معنى من خلال العمل القديم لتلك الأنماط.

(❖) Fugue: صيغة من صيغ التراكيب الموسيقية الغربية.

د. /: هل بدا لك أن الميثولوجيا التي أردت إعادة بناء نسقها -في الأمريكتين- هي ميثولوجيا مشبعة بالموسيقية؟

ك. ل. ش: إن التحول الذي وصفته للتو بمصطلحات تاريخية والمتعلق بحضارتنا قد وُلد لأن الأشكال الموسيقية كانت كامنة في البنى الأسطورية ومن الممكن عبر سير تراجعي الوصول إلى الأولى، لكي نفهم الأخيرة بشكل أفضل.

إن شكل «الفوجا» Fugue أو شكل السوناتا كانا موجودين مسبقاً في الأساطير قبل أن يولدا موسيقياً.

د. /: إذاً، كان التنظيم الموسيقي لهذا العمل ضرورة. غير أنه يُفتقد قليلاً اعتباراً من الجزء الثاني...

ك. ل. ش: أبداً.

د. /: على أية حال، يختفي من عناوين الفصول.

ك. ل. ش: كنت أرغب بتأكيد، وعندما حصلت على ذلك لم يعد مفيداً التشديد عليه. لأن هذا سيبدو متحذلقاً أو حتى ثقيل الظل. لكن إعادة طرح مسألة الموسيقا في «الخاتمة» مع تطورات جديدة يثبت جيداً أن فكرة توازي الموسيقا والأسطورة تستوطن الأجزاء الأربعة. بل إن البرهان على شكل «فوجي» Fuguee للأسطورة لم يظهر إلا في الجزء الأخير.

أثناء كتابتي لـ«النبي والمطبوخ» تعطلت لأن أحد التحولات الأسطورية الذي بدا لي مؤكداً يمثل بنية لم أجد لها معادلاً موسيقياً، مع أن الفرضية البدئية تتطلب وجود معادل. عرضت مشكلتي على

صديقي رينيه ليبونيتز. فأجابني إن مثل هذه البنية -على حد علمه- لم تستخدم أبداً في الموسيقى مع أن لا شيء يتعارض معها. وبعد عدة أسابيع، أهداني وزوجتي عملاً موسيقياً ألفه حسب الخطوط التي حددتها. بالمقابل، أنت تعرف أن بيرو استخدم «النبي والمطبوخ» في سينفونيا حيث تترافق الموسيقى مع إلقاء جزء من النص. أعتز أنني لم أفهم سبب هذا الخيار. وفي أحد اللقاءات طرح عليّ عالم موسيقي سؤالاً حول ذلك. فأجبت أن الكتاب ظهر حديثاً وربما اختاره بيرو لأنه وقع تحت يديه. لكنني تلقيت منذ عدة أشهر رسالة من بيرو أبدى فيها امتعاضاً شديداً. فقد قرأ اللقاء بعد عدة سنوات وأكد لي أن الحركة السيمفونية مدار النقاش هي البديل الموسيقي للتحويلات الأسطورية التي ألقى الضوء عليها. وأرفق مع الرسالة كتاباً لعالم موسيقي برهن على ذلك⁽⁵⁴⁾. وقد اعتذرت عن سوء فهم عائد إلى عدم خبرتي الموسيقية، لكنني بقيت حائراً.

د. /: قلت يوماً إنك تود لو كنت قائد أوركسترا.

ك. ل. ش: إن ظاهرة الخلق الموسيقي تسحرني. فمعظم الرجال والنساء حساسون للموسيقى وينفعلون بها ويعتقدون أنهم يفهمونها، لكن قلة نادرة فقط قادرة على خلقها، وقد استحوذت هذه المسألة على تفكيري لأن هذا الوضع لا يوجد في أي نشاط إنساني آخر (لقد حاول كل منا عندما كان صغيراً أو مراهقاً كتابة الشعر، وفيما يتعلق بالفنون التشكيلية تذكر القول: «إذا كنت تعرف الكتابة فأنت تعرف الرسم»). عندما كنت فتى حلمت بالانتماء إلى هذه القلة. وقد تلقيت دروساً في تعلّم الكمان من عازف ألتو (Alto) في الأوبرا، كما أن زوجته عازفة بيانو. كنت أولف قطعاً لثلاثينا الصغير هذا،

وكان لطفاً منهما أن يعزفاها. أعتقد -وليسامحني الله- أنني بدأت في ذلك الوقت بتأليف أوبرا. لكنني لم أذهب أبعد من المطلع.

د.ل: إن هذا روسويّ للغاية

ك.ل. ش: مع الفرق أن روسو كان قادراً على ذلك أما أنا فلا.

د.ل: هل تلعب الموسيقا دوراً كبيراً في حياتك؟

ك.ل. ش: جداً. فأنا أستمع إلى الموسيقا طوال الوقت وأعمل برفقتها. وهذا ما قد يثير استنكار المهووسين بها الذين قد يهتمونني بأنني أجعل منها ضجة خلفية. هذه أمور معقدة وأنا أجد صعوبة في شرح العلاقة بين عملي والموسيقا، وقد لا يمكنني ذلك إلا عبر مقارنة: لماذا يحتل العاري موقع الصدارة في الرسم؟ يمكن الاعتقاد بأن السبب هو الجمال الداخلي للجسد. لكن يبدو لي أن ثمة سبباً مختلفاً. فحتى الرسام الأكثر بروداً والمعتاد على عرض الموديلات لا يمكن إلا أن يشعر بشيء من الإثارة الايروتيكية عند رؤية جسد جميل. وهذه السورة الخفيفة تثيره وتشحذ ذهنه. إن الفنان يبحث بشكل واعٍ أو غير واعٍ عن هذا الصنيع. وتندرج علاقتي بالموسيقا في الإطار نفسه: فأنا أفكر بشكل أفضل عندما أسمعها. تتأسس علاقة تراكبية بين سرد الخطاب الموسيقي وحبل أفكارهما يترافقان تارة ويفترقان تارة أخرى ثم يعودان إلى الالتقاء. وكم مرة لاحظت أنني أثناء استماعي لعمل موسيقي، لا أعود أسمعُه عندما تتبثق فكرة ما! ويعود فكري بعد هذا الانفصال الذي يحرره قليلاً إلى التداخل من جديد مع العمل الموسيقي، كما لو أن الخطاب العقلي يحل للحظة محل الخطاب الموسيقي مع بقاءه متورطاً معه تماماً.

د. /: هل تذهب كثيراً إلى الحفلات الموسيقية؟

ك. ل. ش: في مراهقتي كنت أذهب أسبوعياً إلى حفلات كولون أو باسدلوب وإلى حفلات أخرى أيضاً. أما الآن فلا، لأنني أصبحت مصاباً برهاب الاحتباس، وترعبني فكرة انحشاري في صف من المقاعد. لكنني أستمع إلى المذياع.

د. /: ألا تحب الأسطوانات؟

ك. ل. ش: إنها تسبب لي نوعاً من القلق: ليس مكانياً لكنه زمني. قلق من فكرة أنها تدور قريباً مني وأنها تقترب من النهاية وأن عليّ أن أنهض لأغيرها...

د. /: لكنني أرى خلفك صندوقاً يضم «الرباعية».

ك. ل. ش: إنهما صندوقان: بوم وفورتغانفلر. لكن من النادر أن أسمعهما.

د. /: هل تحب الأوبرا لأنك تنفعل بالأصوات؟

ك. ل. ش: بالأصوات وبتركيبها وباقترانها. يوجد في الأوبرات مجموعات تقلبني رأساً على عقب وتسحرنني: رباعي الفصل الأول لفيديليو، سداسي لوسيا دي لاميرمور، خماسي أساتذة الغناء، والثلاثي الختامي لفارس الورد.

د. /: هل يوجد مغني أوبرا تحب سماعه بشكل خاص؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. إنني أركع أمام اليزابيت شوارتزكوف.

د. /: وليس أمام كالاس؟

ك. ل. ش: كالاس أيضاً. خاصة عندما تغني بيليني ودونيزيتي وبوتشيني. كان وسطنا العائلي يشهر ببيوتشيني: مدّع، منتفخ، مبتذل الخ... ولم أدرك إلا متأخراً رقة توزيعه ورهافته، كذلك أصالته كمؤلف موسيقي (فهو كريشار شتراوس يكفي أن نسمع ثلاثة فواصل له حتى نعرف أنه مؤلفها). بالمقابل، يضجرتني فيردي وأجده طناناً ومبهرجاً.

د. إ: بالنسبة لك تتوقف الموسيقا عند دوبيسي، لو أستطيع النجاح في أن أحدد بدقة اللحظة التي ترفض فيها المتابعة؟

ك. ل. ش: إنك تتوقف باكراً جداً. عندما كنت مراهقاً عبدت سترافينسكي بكل أعماله، واليوم قد أكون أكثر انتقائية، لكن «بيتروشكا» و«أزواج» و«ثمانية الآلات النفخية» ما تزال تبدو لي تحفاً فنية في الموسيقا. والموسيقا التي تأتي بعد سترافينسكي يمكن أن تثير اهتمامي وأن تدفعني للتفكير بل يمكن أن يطربني أحياناً وقع الأجراس. مع أنها لا تكلمني.

خاتمة

د. إ: باختيارك «النظرة البعيدة» عنواناً لمجموعة من المقالات، هل كانت لديك نية لإظهار المسافة بينك وبين المجتمع الذي نعيش فيه؟

ك. ل. ش: إنه عنوان مقتبس عن اليابانية، وبالتحديد من خلال قراءتي لزيامي مبدع الـ NO. فهو يقول: لكي تكون كاتباً جيداً يجب أن تعرف مشاهدة نفسك كما يشاهدها المتفرجون. واستخدم تعبير النظرة البعيدة. وقد وجدت أنها تمثل جيداً وضع الإثنولوجي الذي ينظر إلى مجتمعه لا كما يراه من موقعه كعضو فيه، لكن كما يراه ملاحظون آخرون موجودون بعيداً عنه زمنياً أو مكانياً.

د. إ: تؤكد غالباً أنك إنسان من القرن التاسع عشر. ماذا يعني هذا؟

ك. ل. ش: ليست هذه الفكرة خاصة بي. فمنذ عدة سنوات كتب عني زميل أمريكي شاب كتاباً⁽⁵⁵⁾ يضعني فيه ضمن تقليد الرمزيين والكتاب الآخرين في القرن التاسع عشر. إنه قرن لن أشعر فيه بالغربة لو أن جنية نقلتني إليه بضربة من عصا سحرية دون أن

أفقد وعيي كإنسان من القرن العشرين. حيث سأجد بذور اختراعاتنا العظيمة.

لا تعلق كثيراً من الأهمية على أحلام مجانية إذ لا يمكن الرجوع إلى الماضي. وكما كتب ستاندال في مكان ما: يمكن أن نشتي بتوق شديد بعث الإغريق: لكن يمكن الحصول على شيء مماثل في الولايات المتحدة (البلد المحدث) ليس هو عصر بيريكليس. إن أكثر ما يعجبنا في الأزمنة القديمة (الأدب، الفن) ليس هو ما كان يجلب السعادة للبشر. إنهم ما إن يعرفوا شيئاً آخر حتى يسارعوا إلى التغيير: والدليل اليوم البلدان المدعوة على «طريق النمو».

في اتجاه معاكس، بلبلني أن الحرفيين في عهد لويس الخامس عشر (الذين ندين لهم بأجمل إبداعات العبقرية الفرنسية في الفن التزييني) أمكنهم أن يكونوا من الذين سارعوا للتلذذ بعذاب «داميان». تبدو لي هذه الحالة نموذجية لأنها الأقرب إلينا، لكنها ليست الحالة الوحيدة التي لا يبدو فيها وجود أي تنافر بين رهافة الفن وقسوة الأعراف. وستسرّ إلي بأن ثمة ما نتساءل عنه حول الإنسان. وستقول لي إن هذا هو دور الإنثروبولوجيا. للأسف -أو ربما لحسن الحظ- إنها لا تمتلك إجابة عن كل شيء.

بعد سنتين

د. إ: إننا في حزيران / يونيو 1990، وقد مرت سنتان بالضبط على اللمسة الأخيرة التي وضعناها على «عن قرب وعن بعد»^(*) أود أن أطرح عليك بعض الأسئلة الإضافية تتعلق بالمواضيع المختلفة التي قاربناها في هذا الكتاب. وسأبدأ من البداية بالتاكيد. لقد تملكني الفضول لرؤية المبنى الذي عشت فيه حتى الأستاذية والكائن في شارع بوسان إنه بناء برجوازي جميل برمته.

ك. ل. ش: نعم، مشيد بحجر منحوت، مع سجاد على الدرج الذي كان مضاءً بمصابيح زجاجية على نمط العصر. وعشية الحرب العالمية الأولى لم يكن في المبنى إلا جهاز هاتفي واحد موجود في الطابق الأرضي. وكان البواب يجيب على المكالمات الهاتفية وينبه الساكن المعني بواسطة جرس خاص. كنا نسكن في الطابق الخامس (من الشرفة كانت تظهر الفرانكودرو حيث توجد اليوم القرية السويسرية)، وكنا نتدحرج على الدرجات بأقصى سرعة للرد على الهاتف. وعندما ننهي اتصالنا نعود لنصعدها من جديد. بعد عدة

(*) «عن قرب وعن بعد» هو العنوان الأصلي للكتاب في طبعته الأولى، وهذا الفصل حوار أجراه إرييون مع لقي - شتراوس بعد سنتين من صدور تلك الطبعة، فأضافته دار النشر إلى الكتاب في طبعته الثانية (وهي التي قمنا بترجمتها).

سنوات، اشترى المبنى أحد المضاربين فزاد الأجرة وركب مصعداً، وأتى يوم امتلكتنا فيه هاتفاً.

أضيف هنا أنني -كشخص يسكن هذا المبنى- كان عليّ أن أصرخ باسمي قرب شقة البواب عندما أعود متأخراً، وإلا فإنه سيقفز من سريره ويتبعني على الدرج.

عندما أتذكر بعض الأعراف، يبدو لي أنني عشت في طفولتي زمناً ينتمي إلى القرن التاسع عشر وألوم نفسي لأنني نظرت إليها آنذاك بعين لا مبالية أو متضايقية. ومن هذه الأعراف زيارة الأقرباء لجدتي في الأول من كانون الثاني / يناير من كل عام (حيث تنزع في هذه المناسبة الأغذية التي تغطي أثاث غرفة الاستقبال بقية العام)، زيارة أبي وعمي للمقابر في اليوم نفسه، بطاقات الدعوة المثنية المرسلة إلى أشخاص تترتب التزامات تجاههم الخ... واليوم يبدو لي هذا شهادات دقيقة عن زمن غابر. إن هذه الحالة الفكرية منتشرة جداً، وهي تفسر دون شك بناء المتاحف بكثرة كي تتكدس فيها تحف من كل نوع، كما لو أن مجتمعا يفترسه التغير السريع ولا يستطيع في هذا الدوار أن يقوم نفسه، يأمل أن تصبح هذه التحف المتراكمة دون تمييز حافظاً له، ولذلك يحرص على ألا يفلت شيئاً مما قد تجده الأجيال المستقبلية مثيراً للإعجاب. ربما يكون هذا موقفاً قابلاً للانتقاد تماماً كموقفنا الآخر اللامبالي. إن أسلافنا الذين كانوا واثقين من أنفسهم أكثر منا، لم يعرفوا هذه الاضطرابات في الوعي.



د. /: ثمة عدد من النقاط أود أن أعود إليها تتعلق بالسياسة.

**لقد ذكرنا انتماءك إلى الماركسية وال SFIO. أود أن أعرف: ألم تحاول
أبداً الانتماء إلى الحزب الشيوعي؟**

ك. ل. ش: يمنحني سؤالك فرصة توضيح نقطة ليس لها من الأهمية سوى طرافتها، أظهرها كاتبان: جان-فرانسوا سيرنييلي في كتابه الجيل الفكري⁽⁵⁶⁾ وستيفان كلويه في أطروحته الضخمة واللامعة المكرسة لحركة الثورة البناء⁽⁵⁷⁾ التي انتميت إليها. لقد تساءل الاثنان حول عدم التوافق الظاهر بين جورج لوفرانك وبينني بخصوص التاريخ الذي أصبحت فيه اشتراكياً. في الواقع تفسير ذلك بسيط. كنت اشتراكياً فلسفةً وعقيدةً قبل أن أعرف لوفرانك. كنت قد قرأت ماركس والكتاب الكبار الآخرين لكنني كنت متردداً حيال الالتزام السياسي. وقد جذبني الحزب الشيوعي الذي يفترض أنه يجسد الماركسية الصلبة والنقية. لكن جورج لوفرانك أقتعني بالانتماء إلى SFIO. وهكذا جعل مني كما قال اشتراكياً، لكن بالمعنى «النضالي» للكلمة، كعضو في حزب.

د. ل. أريد بالضبط أن أسالك عن مجموعة «الثورة البناء».
كنتَ عنصراً فعالاً في هذه المجموعة التي دعت إلى تجديد أيديولوجي
للحزب الاشتراكي، وخاصة توجبه اهتمام أكبر بالطبقة العاملة
ومنظماتها. وكنت أحد محرري البيان التأسيسي لهذه الحركة.

ك. ل. ش: تجمع أطروحة ستيفان كلويه الضخمة كمية كبيرة من الوقائع والمعلومات عن هذه الحركة لست قادراً على تذكرها كلها. باختصار: لقد ذكرت سابقاً الدور الذي لعبه في تكويني حزب العمال البلجيكي وطموحه عبر نقاباته وبلدياته وتعاونياته إلى خلق مجتمع اشتراكي في قلب العالم الرأسمالي. وقد شرعنا ببضعة أشخاص في

دفع هذه الصيغة إلى نهايتها، لنجعل منها نظرية ونستخلص منها عقيدة: إذا عكفنا يوماً بعد يوم على بناء مؤسسات الفكر الاشتراكي، فإنها ستكبر شيئاً فشيئاً كالخادرة في الشرقة الرأسمالية، وستنتهي هذه الأخيرة إلى السقوط كغلاف ميت ومتجفف. لقد كان هذا بالتأكيد جهلاً تاماً بالاقتصاد الحديث وتعقيده وديناميته وقوته. لكننا على الأقل بذلنا جهداً للتفكير عبر مصطلحات اقتصادية كما أن هذه المحاولة - رغم سلبيتها مقارنة بهدفها - لم تكن تماماً دون فائدة بدليل الدور المرموق الذي لعبه فيما بعد اثنان من أعضاء المجموعة هما روبير مارجولان وبيير دريفوس، في الحياة الاقتصادية الوطنية والدولية. ومهما كان الأمر، فقد أدركت المجموعة سريعاً سذاجتها وقصورها ولذلك تفككت عفوياً.

د. ل. ش: تحدثنا عن التزامك الاشتراكي وعن «كتابك» الأول: كراس حول غراتشوس بابوف. وتوجد أيضاً سلسلة كاملة من المقالات، نُشرت في مجلة الطالب الاشتراكي، نجد منها على سبيل المثال مقالاً عنوانه الاشتراكية والاستعمار، وآخر حول سيلين...

ل. ش: لقد نشرت تلك المقالات بشكل غير منتظم بين عامي 1928، 1933 وكنت أدافع فيها عن طرح مفاده أن كل شكل من أشكال الطليعة ثوري ضمن مجاله بمثل الدرجة التي نعتقد أننا نمتلكها في مجال السياسة. وبذلك كنت أبتعد عن الذين يعتبرون التكيعيبية والسريالية... إلخ تمظهرات للانحطاط البرجوازي وعددهم كبير بين مناضلي اليسار آنذاك، لقد أثارني «سفر في آخر الليل». واعتقدت أن من الضروري أن أشرح في مقال طويل أن الأوساط الاشتراكية تشهر بالكتاب لمجرد أن ليون دوديه هو الذي اكتشفه وامتدحه كتحفة فنية.

د. ل. ش: /: واليوم، هل ما زلت تحب سيلين؟

ك. ل. ش: لا أعتقد أنني أعدت فتح «سفر» منذ ذلك الحين. أما «موت بالتقسيط» فلم يكن حماسي له صافياً. لكن ثمة قطعاً لامعة للغاية حتى في بعض كتبه الكريهة التي تلتهما.



د. ل. ش: فلنبقَ في ميدان السياسة إذا سمحت. تروي أني كوهين - سولال في كتابها حول سارتر أن المحرضين على «بيان ال-121» (من أجل حق العصيان خلال حرب الجزائر) وكان من بينهم جان بويون، دهشوا عندما رفضت التوقيع عليه. هل تذكر الأسباب التي أمّلت عليك هذا الرفض وقد مر عليه الآن ثلاثون عاماً؟

ك. ل. ش: لم أكن الوحيد الذي رفض التوقيع، فقد رفض ميرلو- بونتي وآخرون أيضاً. لقد بدا لي مهيناً أن يحرض المرء الجنود الشباب على العصيان عندما لا يكون هو نفسه قابلاً للتجنيد. بالإضافة إلى أنني لم أشأ الانسياق وراء خلط من واجب الإثنولوجيين أكثر من غيرهم عدم الانخداع به. إننا مشدودون بشغف إلى قضية المجتمعات التقليدية الصغيرة، التي لم يكن لكثير منها حتى عدة عقود خلت أي طموح سوى الاستمرار في العيش على حدة كما كانت تفعل دائماً محمية بذلك من أضرار الحضارة. ولا يمكن الخلط بين هذه الرغبة ورغبة شعوب تريد -على العكس- المشاركة على قدم المساواة في الحياة الدولية، وأن تغدو أعضاء تتمتع بكامل حقوق المجتمع الصناعي التي تشعر فقط أنها متأخرة عنه.

إن مطالبة شعب ما باستقلاله ظاهرة ننحني أمامها جميعاً،

فمنذ قرنين بدا مبدأ القوميات قوة محرّكة أثبتت التجربة أن ما من دولة مهيمنة أو حتى اتحادية تمتلك قدرة مستمرة على الوقوف ضدها. لكن ليس في هذه المطالبة ما يمكن أن يحمّسنا: فالسيادة الوطنية ليست شيئاً جيداً بحد ذاته، والمهم هو كيفية استخدامها. ويمكن أن نتساءل - وهذا مشروع تماماً - ألم يكن من الأفضل ألا تتراكب الولاءات وأن يبقى بينها مجال ما بدلاً من تكديسها فوق بعضها والإقحام القسري لكل ما يتجاوزها.

د. إ: وَقَعْتَ عام 1958، حسب ما أورد جان - فرانسوا سيرنييلي، في كتابه «المثقفون والأهواء الفرنسية»⁽⁵⁸⁾، على نداء من أجل السلام في الجزائر. وقد وَقَعَ على هذا النص بشكل خاص فرانسوا مورياك وروجيه مارتان دوفار وأندريه بروتون وجان بول سارتر وجان كوكتو وجان روستان...

ك. ل. ش: إنك تذهب إلى حد اتهامي بسوء النية، لكني بصراحة لا أذكر أنني وقعت على مثل هذا النداء. وربما فعلت ذلك راضخاً لضغط ما أو واقعاً تحت تأثير حماس عابر على أية حال. وتدل السرعة التي يشطب فيها لا وعيي مثل هذه الأحداث من ذاكرتي على عدم رضاي عن نفسي من أفعال قمت بها ثم ندمت عليها سريعاً.

د. إ: عندما نشر «عن قرب وعن بعد» قام المعلقون باعتراض غريب على ما قلته حول النسبوية الثقافية⁽⁵⁹⁾: «إذا سلّمنا بأن ما من ثقافة يمكنها الحكم على ثقافة أخرى، فهذا سيمنعنا من تفضيل نظام ديمقراطي على نظام شمولي» ما هو مُسلٌّ أنهم كانوا يكررون حرفياً ودون أن يدروا، الاعتراض الذي وجهه إليك الشيوعيون في

الخمسينات عندما قالوا: «قبول النسبوية الثقافية قد يكون امتناعاً عن النضال من أجل مجتمع أفضل». ويبدو أن الذين أشهروا في وجهك هذه الحجة اليوم يجهلون تماماً، ردك القاطع جداً على منتقديك الشيوعيين، والذي يمكنك توجيهه لهم دون أن تغير فيه كلمة واحدة⁽⁶⁰⁾.

ك. ل. ش: يجب عدم الخلط بين الثقافات والأنظمة السياسية. إن الأنظمة التي تحدثت عنها ولدت من ثقافتنا وفيها. وسواء سرنا ذلك أم لا، فهي تعبر عن بعض احتمالات هذه الثقافة. ونحن الذين ننتمي إلى هذه الثقافة ونعيشها من داخلها ملزمون بخيارات لا يمكن تجنب القيام بها: لأن تاريخنا ومعتقداتنا ومصالحننا تفرضها. وهذا لا يمت بصلة لعدم أهليتنا لتحديد موقع ثقافة ما بين الثقافات الأخرى موضوعياً. فالمعايير التي نريد اللجوء إليها لتمييز إحدى الثقافات إما أن تأتي منها هي نفسها وتكون بالتالي محرومة من الموضوعية، أو أنها تأتي من ثقافة أخرى وهي لهذا السبب مقصاة. ولكي نصل إلى حكم صحيح على ثقافة ما يجب الإفلات من جذب أية ثقافة. ثمة بالتأكيد حالات وسيطة بين هاتين الوضعيتين الطرفيتين. لكننا لا نستطيع الحكم على الأنظمة السياسية لمجتمعات مختلفة عنا (حتى لو كانت ناتجة جزئياً عن عدوى نحن مصدرها) بمثل الثقة التي نمتلكها، عبر المنشأ والمآل، عندما يتعلق الأمر بمجتمعنا.

د. إ: وهنا، سيعترض عليك بالقول إن الديمقراطية وحقوق الإنسان امران ترغب فيهما كل المجتمعات. إنك لا تستطيع أن تنكر هذه النقطة.

ك. ل. ش: إذا أخذنا الأمر من منظور الحضارة الغربية فإن ما نقوله صحيح. فالديمقراطية وحقوق الإنسان هما الأكثر ملاءمة لجهازنا العصبي الحسي بل لنقل إنهما الوحيدتان، لكن ما إن نغير المقياس مبتعدين قليلاً أو كثيراً في الزمن أو في المكان حتى تضطرب المفاهيم الأساسية فتفقد محتواها أو تكتسب محتوى يمكن أن يختلف كلياً عن المحتوى الذي تملكه في تقليدنا الخاص.

د. /: يبدو لي أن النسبوية الثقافية هي أيضاً ما جعل معلقين آخرين ينتقدون ما اعتقدوا أنه رفض للحضارة الغربية من قبلك. بل إن إحدى الصحف كتبت إنك تكره هذه الحضارة⁽⁶¹⁾، لكنني بقراءتي لكتبتك وبالتحدث معك يتملكني (على العكس) انطباع أن كل شيء يشدك إلى ثقافة عالمنا.

ك. ل. ش: إنني نتاج هذه الثقافة. كما أن كتابها ومفكرها وموسيقياها ورساميها ولغاتها -ابتداء باللغة التي أتحدث بها وأقرأها وأكتب بها- هم النسغ الذي يغذيّني. هل يمكن لي أن أذكر لك شيئاً؟ عندما عدت إلى فرنسا عام 1944 على متن زورق للبحرية الأمريكية، رسونا على الشواطئ البريطانية في كارديف على ما أعتقد. وكان عليّ أن أصل إلى لندن بواسطة القطار. وفي طريقي إلى المحطة اجتزت مدينة الليل عبر طرقات ضيقة ومتعرجة محفوفة بمنازل واطئة أغلبها خرب. ولقد خلّف لديّ هذا المسير واحداً من أعمق التأثيرات التي شعرت بها في حياتي: إنها أوروبا، أخيراً ما أنذا في بيتي بعد سنوات عديدة قضيتها في جنوب العالم الجديد وشماله....

لقد كنت شاهداً (منذ أكثر من خمسين عاماً) على احتضار الشعوب الصغيرة الهند - أمريكية التي تزرع تحت انقضاءات

الحضارة الغربية وفكرت أنه يجب الدفاع عنها بشكل عاجل ضد هذه الأخيرة، لكن وبعد كل الكوارث التي انهالت على الحضارة الغربية خلال السنوات المنصرمة فإني أراها اليوم مهددة، وبحاجة كبيرة للدفاع عنها هي نفسها: ضد الأخطار الخارجية بالتأكيد، وضد أخطار أخرى أيضاً تأتي من داخلها وتتجرها. لقد قلت ذلك منذ عشرين عاماً في مؤتمر دعت إليه اليونيسكو وسبق أن تحدثنا عنه: «ألا تتجه البشرية الحديثة برمتها باتجاه خسارة نفسها، ألا تعيد على كوكب صغير جداً وعلى نفقاتها خلق وضع مماثل لما فرضه بعض ممثليها على القبائل الأمريكية أو الأوقيانية البائسة»⁽⁶²⁾. إن هذا النداء التحذيري ليس بالتأكيد نابعاً من الكراهية، لكنه يدعو الحضارة الغربية إلى وعي أفضل لوضع بدأت فيه القوى الخارجية والداخلية بتدميرها.



د. /: سبق أن ذكرت قبائل أمريكا الجنوبية التي أقمت بينها قبل الحرب. أعتقد أنك حاولت العودة إليها، عند مرورك القصير بالبرازيل عام 1985.

ك. ل. ش: لم أحاول من تلقاء نفسي إنما عرضت علي صحيفة برازيلية كبيرة أن تقودني إليها للقيام بتحقيق فوافقت باندفاع. صعدنا عند الفجر على متن طائرة صغيرة لا يوحى مظهرها بالثقة. وكنا أربعة: زوجتي وزميلة برازيلية وصحفي وأنا إضافة إلى القبطان. في البدء هبطنا في قرية على تخوم بلاد البورورو. لم يكن لدى القبطان أية فكرة عن مكان وجود القرى الهندية فأقل أحد السكان المحليين الذي قال إنه قادر على أن يرشده. اتبعنا سيراً غير

منتظم على ارتفاع منخفض، وأخيراً لمحنا قرية بورورو معروفة بمساكنها المتوضعة على شكل دائرة، وغير بعيد عنها رأينا أرضاً مستطيلة وهي مكان مثالي لهبوط الطائرة. وبعد عدة تحليقات على ارتفاع منخفض أعلن القبطان أنه يستطيع الهبوط لكنه لن يستطيع الإقلاع لأن الأرض أصغر من أن تسمح له بذلك. وتكررت هذه الحادثة المزعجة قرب قرية أخرى. فتوجب العودة إلى برازيليا ضمن غيوم متلبدة مشحونة بعاصفة لم تبخل بقسوتها على الطائرة.

لقد كنا أقرب إلى الموت من أية مرة سابقة اجتزنا فيها هذه المناطق على الحصان أو بواسطة النقيرة أو على الأقدام... وعند وصولنا لم يكذب ببقى لنا من الوقت إلا ما يسمح لزوجتي بارتداء فستان المساء، ولي بارتداء بذلتي للمشاركة في العشاء الرسمي مع رئيس الجمهورية الفرنسية والرئيس البرازيلي.



د. /: أريد الآن أن أترك السجل السياسي لأسألك عن غرامك بالطبيعة. إنك تمتلك منزلاً على الحدود بين برغونيا والريف، تقيم فيه كثيراً. المنطقة هناك جميلة جداً وقد قلت في «عن قرب وعن بعد» إنك تحب مشاهدة المناظر الريفية. هل تقضي عدة أشهر سنوياً في الريف بدافع المتعة الجمالية الخالصة؟ من أجل متعة العين؟

ل. ل. ش: إن متعة العين مهمة للكثيرين. ثمة لحظات لا يُعلى عليها: الانتقال من الشتاء إلى الربيع (الذي يتأخر عندنا شهراً عن ربيع باريس: فمناخ هضبة اللانغر مناخ قاس)، وفي هذا الانتقال تتغير الطبيعة في يوم، وأحياناً عندما يكون الطقس جميلاً تتغير

الطبيعة من ساعة لأخرى... وتظهر النباتات والأوراق والأزهار كإعجاز فني لعين منتبهة قليلاً.

د. ل. ش: إنه جزء سري من حياتك: هذه النزهات الطويلة في الغابة وهذه الظهيرات التي تقضيها في جمع الفطور ودراسة النباتات...

ل. ش: كنا نتحدث عن الأخطار المهددة للحضارة الغربية. ويبدو لي الانفجار السكاني أهمها. وتتم طمأننتنا بالقول إن هذه الزيادة السكانية تتباطأ وستتوقف قريباً وربما ستعكس. إن عدد السكان في العالم سيتضاعف خلال عقد أو عقدين إذا استمر على هذه المشية وهذه الكارثة ستؤثر على البشرية جمعاء، لكن اليابان والحضارة الغربية ستعانيان منها أيضاً رغم أنهما ليسا من مسببها على أية حال (إلا بشكل غير مباشر عبر نشر الطب).

لقد قلت هذا لكي أجعلك تشعر بالامتياز الذي أتمتع به وزوجتي عبر قضاء عدة أشهر من السنة في مقاطعة تعدادها حوالي (9) أشخاص في الكم.2. وهي -بشكل ما- منحدر من الماضي. فمساحات كبيرة منها سقطت منذ وقت طويل جداً في الإهمال بحيث يمكن أن نتخيل أنها ما تزال برية. وبانطلاقتنا إلى المغامرة، نشق فيها طريقاً، أحياناً بمثل الجهد الذي كنا نبذله في الغابة الأمازونية، لكن عبر غطاء نباتي أكثر تواضعاً توحى أسماء النباتات فيه (قرانيا، نبق، كرز الطير، الغبيراء) ببلاد الغال.

من جهة أخرى، يكفي تطويل البعد البؤري لكي نجد في برية طبيعية الغموض والغرائبية التي نجدها في البلدان البعيدة. وي طرح كل نبات بل كل عشبة على النباتي الهاوي لغزاً يمكن أن يقضي

ساعات ممتعة في حله، والأفضل إذا استعان مع ذلك بمراجع قديمة. إنني أحتفظ في الريف بمعجم للعلوم الطبيعية يرجع تاريخه إلى بداية القرن التاسع عشر، وهو بأجزائه الاثني والسبعين كتابي المفضل! وألجأ إليه غالباً طيلة اليوم.

ذكرت منذ قليل ولعي بجمع الفطور. إن متعتي ليست في أكلها، مثلما أن متعتي عند ترددي على أوتيل دروو ليست في الشراء، ففي الحالتين تكمن متعتي في التعرف على التحف وفي تحديد هويتها بعد بحث مضمّن أحياناً، وفي تأملها بشكل خاص. فالفطور تُحفّ طبيعية رائعة ولكل نوع منها أسلوبه المميز كما هو الحال في التحف الفنية.

د. ل. ش: /إنك تواظب على زيارة قاعة دروو، كما أنك تحب التردد على تجار العاديات والمعارض الفنية...

ك. ل. ش: إنني أزور بسرعة معارض أوتيل دروو مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. ولقد اشتريت منه كما من السقاطين عدداً لا بأس به من التحف في الماضي.. أما الآن فلم أعد أشتري شيئاً تقريباً. تذكر معي القريب بون. إنه كـ«المصنف العالم شونافار» لم يكن يستمتع بمشاهدة أية لوحة إذا لم يكن ثمنها بخساً... ليس بدافع الشح بالتأكيد، لكن لأن الثمن البخس يضمن أننا نقوم باكتشاف وبالمناسبة فقد أصبحت فرص الاكتشاف نادرة في عالم يتزايد انغلاقاً وكانت ما تزال توجد مساحات من الحرية له في الأمريكيتين. إن كل هذا لم يعد وارداً اليوم فقد أصبح لكل خمس سنوات من تاريخ الفن من الآن فصاعداً اختصاصي أو اختصاصيون: لكني أحب التحف بعمق، وخاصة تلك المعروضة بفوضى كما هو الحال إلى اليوم في دروو. وبعضها «أصدقائي»، فمن نظرة واحدة أعرف تاريخها

وأسلوبها، وبعضها الآخر يثير تساؤلي أو يسد ثغرة أعرف أنها موجودة في معارفي وهذا يمنحني متعة هائلة. إن التحف كائنات مستقلة، يجب فهمها لأجلها هي نفسها، وليس لشغل وظيفة نفعية.

إن جمع التحف (الذي شغفت به في طفولتي) يبعث في المجتمع الحديث إحيائية ما animismel. وهو يقَدِّس حشداً من الأعمال الإنسانية كما تقدِّس الشنتو shinto حشداً من الكائنات والأشياء الطبيعية. ألا تلتقي الاثنان في «خزانات التحف» القديمة حيث كانت تُجمع معادن وقواقع وفراشات وحيوانات محنطة وأعشاب مجففة باعتبارها منتجات طبيعية تساوي أو تفوق بالأهمية أو الجمال ما تنتجه يد الإنسان؟

د. ل. ش: إنك بشكل عام تحب التحف كثيراً، لكنني أعتقد أنك تحب المجوهرات بشكل خاص.

ك. ل. ش: أحد الأسباب التي جعلت كايوا يقترب مني (رغم خلافاتنا التي تحدثنا عنها) مقابلة قلت فيها عن فيلم the collector (2) لويلر، وبخلاف الأطروحة التي دافع عنها الفيلم: «إن الانقطاع إلى جمع التحف الواقعية (كالفراشات) أو الجماليات الطبيعية (كالفتيات الجميلات) يبدو أكثر سلامة فكرياً من جمع نسخ اللوحات المعاصرة»⁽⁶³⁾ لقد بدأ كايوا بجمع الفراشات ثم انتقل إلى الأحجار. فعندما نحب الطبيعة كيف لا نضمّر حباً طاهرأً خاصأً من جهة لمنتجاتها الأكثر وقتية أي الأوراق والأزهار، ومن جهة أخرى، وبالدرجة نفسها لمنتجاتها الأكثر ديمومة: المعادن؟

ثمة قليل من الأماكن -عدا دروو- أحب أن أقضي فيها بعض

لحظات المتعة ومنها قبو اللوفر للعاديات الذي يضم بأثني المجوهرات المستعملة. إنها قد لا تكون غالية الثمن كالتى نراها عند صاغة ساحة الفاندوم، لكن التشكيلة هنا احتمالية: وهذا يسحرني. فكما أن الحصى والقواقع والأخشاب المدورة والطافية يخلفها كيفما اتفق انحسار الموجة عن ساحل رملي، فإن التواريخ الشخصية والجماعية تجرف معها ثم تضع في هذه الواجهات مجوهرات متباينة عمراً ونوعاً، يعود تاريخها إلى الفترة ما بين القرن السابع عشر والقرن العشرين (مع هيمنة للقرن التاسع عشر الذي كان عصرأ عرف العمل الحرفي فيه أن يقدم خلاصةً لماضيه) وهي تأتي من كل مناطق العالم: هنا يمكن أن نحلم على مدى ساعات عديدة. إن ما يثيرني ليس الأحجار الأكبر ولا الأكثر نقاءً، لكن بشكل خاص الأحجار التي يقال عنها مهنيأ «مشظاة» أو «مشذبة» والمتميزة بشوائب ينعكس فيها تاريخ الأرض، كما أن طريقة تركيبها وتصنيع الذهب والفضة المحيطين بها تعكس طبقة اجتماعية (ثمة مجوهرات ريفية، وأخرى برجوازية، تراثية أو غريبة) أو لحظة من التاريخ الحديث أو المعاصر أو أسلوباً... إن المجوهرات (سهلة الاستخدام والمصنوعة كي تُحمل) تظهر لنا كمالم صغير، موحدة الطبيعة والإنسان بذكاء لا بأس به، وتطلعنا على ما عرفت عبقريتهما على التوالي خلقه من الأحذق والأندر، ومن الأكثر ديمومة إلى الأكثر وقتية: تحف بهية أيضاً بثمرتها الذي يدفعها إلى عالم متوج بأسرار أخرى.



د.إ: في الختام، أود أن أسألك عن أخبار الكتاب الذي تكتبه حالياً. عندما تحاورنا في «عن قرب وعن بعد»، سألتك عما حلّ

بالجزء الذي كان يجب أن يشكل تنمة لـ «الخزافة الغيور»، وقد أجبتني بأن لا رغبة لك في كتابته. ومنذ ذلك الوقت، عكفت على الكتابة واعتقد أنك قد انتهيت منه تقريباً؟

ك. ل. ش: آه نعم! منذ نهاية لقاءاتنا قررت أن أكتبه. ربما لأن حديثك عنه جعله أكثر حضوراً عندي. وبشكل خاص لأنني كنت أشعر أنني مضطرب دون نظام عمل يومي، وقد شغلني الكتاب بانتظام خلال سنتين تقريباً. وأعتقد أنه سينشر عام 1991. لسوء الحظ إن ضيق الصدر العائد للعمر جعلني أفقد الرغبة والموهبة في التوسع. ومن هنا كان كتاباً صغيراً لكن قراءته ستبدو مربكة وجافة، لأنه يخط سيراً متقلباً لم أعتن بشرح انعطافاته. لقد بدأت بتحليلات تقنية للغاية كان عليها أن توجد في «أسطوريات»، ثم تابعت بتناول لأساطير أمريكية ولل فولكلور الفرنسي مترابط مع عبارات حول مونتني، وانتهيت بتأملات مغامرة: ملاقياً دوميزيل السنوات الأخيرة فأنا أيضاً في سنواتي الأخيرة...

الهوامش:

(1): كلود ليقي - شتراوس، المدارات الحزينة، باريس، بلون،

1955.

(2): برونيسلاف مالمينوفسكي، يوميات إثنوغرافي، مترجمة

عن الإنكليزية من قبل تينا جولاس، باريس، سوي، 1985.

(3): كلود ليقي شتراوس، الطوطمية اليوم، باريس، PUF، 1962.

(4): سيمون دو بوفوار، مذكرات شابة مرتبة، باريس، غاليمار

فوليو، 1972، ص411.

(5): خطاب كلود ليقي - شتراوس، في خطاب استقبال

فيرناند بروديل في الأكاديمية الفرنسية وردّ موريس دريون، باريس،

أرثو، 1985، ص91-99.

(6): لمعرفة حكاية البعثات عند الهنود يمكن للقارئ العودة إلى

«المدارات الحزينة». (الكاديفيو والبورورو: شعبان من هنود البرازيل. -

المترجم).

(7): «نيويورك قبل التصويرية وبعدها» في «النظرة البعيدة»،

باريس، بلون، 1983.

- (8): «الحياة العائلية والاجتماعية لهود النامبيكوارا» في جريدة مجمع الأمريكويين، باريس، 1948.
- (9): جيمي إرنست، الفرق المطلق، باريس، بالاند، 1987.
- (10): رومان جاكوبسون، ستة دروس حول الصوت والمعنى، مقدمة كلود ليقي - شتراوس، باريس، منشورات منتصف الليل، 1976.
- (11): كلود ليقي - شتراوس، البنى الأولية للقرابة، باريس، PUF، 1949، الطبعة الثانية، موتون، 1967.
- (12): الأزمنة الحديثة عدد (49)، تشرين الثاني / نوفمبر 1949.
- (13): كلود ليقي - شتراوس، الوعود، باريس، بلون، 1984، ص(258).
- (14): النظرة البعيدة، مرجع مذكور، ص(354).
- (15): كلود ليقي - شتراوس، العرق والتاريخ، باريس، يونيسكو، 1952 (طبعة ثانية، فوليو، 1987).
- (16): أندريه - جورج هودريكور وباسكال ديبيه، الأقدام على الأرض، باريس، ميتيليه، 1987.
- (17): أندريه لوروا - غوران، جذور العالم، لقاء مع كلود - هنري روكيه، باريس، بيلفون، 1982، ص(109).
- (18): كلود ليقي - شتراوس، الإنثروبولوجيا البنيوية، باريس، بلون، 1958.
- (19): الإنثروبولوجيا البنيوية، مرجع مذكور، الفصل (16).

- (20): السوسيولوجيا في القرن العشرين، باشراف ج. غورفيتش ومور، باريس، puf، 1947 .
- (21): ج. غورفيتش، «مفهوم البنية الاجتماعية»، دفاتر دولية في السوسيولوجيا، المجلد (19)، السنة الثانية، 1955 .
- (22): مارسيل موس، السوسيولوجيا والإنثروبولوجيا. مع مقدمة لكلود ليفي - شتراوس وتقديم جورج غورفيتش، باريس، puf، 1950 .
- (23): جان فرانسوا رُفيل، لماذا الفلاسفة؟، باريس، جولييار، 1957 .
- (24): الطوطمية اليوم، مرجع مذكور.
- (25): كلود ليفي - شتراوس، الفكر البدائي، باريس، بلون، 1962 .
- (26): في نهاية كتاب عنوانه: كلود ليفي - شتراوس، ضمن سلسلة أفكار، غاليمار، 1979 .
- (27): إليزابيت رودينسكو، معركة مئة عام، الجزء الثاني، باريس، سوي، 1986 .
- (28): وعود، مرجع مذكور، ص(11-12) .
- (29): ريمون آرون، مذكرات، باريس، جولييار، 1983، ص(494) .
- (30): نوفيل أوبسيرفاتور عدد(21) تشرين الأول / أوكتوبر 1983، ص(96-97) .
- (31): خطاب استقبال آلان بيريفيت ورد كلود ليفي - شتراوس، باريس، غاليمار، 1977، ص(57) .

(32): «ديوجين النائم» في الأزمنة الحديثة عدد(195)، باريس، بلون، 1955.

(33): جورج دوميزيل، نوفيل أوبسيرفاتور عدد(7) أيلول / سبتمبر 1984، ص(74-76).

(34): كلود ليقي - شتراوس، من العسل إلى الرماد، باريس، بلون، 1966، ص(244).

(35): جان بويون، «عمل كلود ليقي - شتراوس» في الأزمنة الحديثة، باريس، عدد(126)، تموز / يوليو 1956. أعيد طبعه في كلود ليقي - شتراوس، العرق والتاريخ، مرجع مذكور(1987).

(36): كلود ليقي - شتراوس، «انشطار التمثيل في فنون آسيا وأمريكا» في النهضة، نيويورك، المجلد(2-3)، 1944-1945، أعيدت طباعته في الأنثروبولوجيا البنيوية، الفصل(13). لوسيان فيفر «اقتباسات أو أعماق مشتركة للإنسانية؟» في حوليات، باريس 1951، ص(380-381).

(37): فيرناند بروديل، كتابات حول التاريخ، باريس، فلاماريون، سلسلة آفاق، 1969، ص(58).

(38): جورج شاريونيه، لقاء مع كلود ليقي - شتراوس، باريس، الاتحاد العام للمنشورات، 1961، أعيد نشره في سلسلة 18/10، باريس، بلون - جولييار، 1969.

(39): «الأنثروبولوجيا، التاريخ، الأيديولوجيا» في «الإنسان»، تموز / كانون الثاني 1975، ص(177-188).

- (40): كلود ليقي - شتراوس، طريق الأقتعة، باريس، بلون، 1979، ص(145-148).
- (41): كلود ليقي - شتراوس، «خروج على سفر الخروج»، في «الإنسان»، 28، 106، 1988.
- (42): جان بوتيتو، «مقاربة مورفوديناميكية للصيغة القانونية للأسطورة». في «الإنسان»، 18، 106، 1988.
- (43): شارل بودلير «ريشار فاغنر وتانهاور في باريس» في الأعمال الكاملة، باريس، بلياد، ص(1211-1214).
- (44): العرق والتاريخ، مرجع مذكور، معاد نشره في الإنثروبولوجيا البنيوية(2)، الفصل(18)، باريس، بلون، 1973.
- (45): كلود ليقي - شتراوس، «العرق والثقافة». وأعيد نشره في النظرة البعيدة، الفصل(1)، باريس، بلون، 1983.
- (46): ريمون آرون، مذكرات، باريس، جوليارد، 1983، ص(520).
- (47): فرانسوا جاكوب، الدستور الداخلي، باريس، منشورات أوديل جاكوب، 1987.
- (48): برنار - هنري ليقي، الفيغارو - مدام عدد(13300)، 5 حزيران 1987.
- (49): آلان فينكيلكراوت، انهزام الفكر، باريس، غاليمار، 1987.
- (50): («القطط» لشارل بودلير)، في «الإنسان»، 2، 1، 1962.
- رومان جاكوبسون، أسئلة الشعرية، باريس، سوي، 1973، ص(401-419)، مختارات III. الهاغ - باريس - نيويورك، موتون، 1981، ص(447-464)،

وص (783-785). دولاكروا وغيرتز، «القطط» لبودلير. مواجهة المناهج، باريس، puf، 1980.

(51): عنوان لمقتطفات من نص، أصبح الفصل (19) من النظرية البعيدة، نشر في نقاش، عدد (15)، آذار / مارس 1981.

(52): ب. سولاج «الصنعة المفقودة المزعومة»، نقاش عدد (15)، 1981.

(53): جورج شاربونيه، مرجع مذكور.

(54): د. أوسموند - سميث، اللعب بالكلمات، دليل إلى سينفونيا لوسيانو بيريو، لندن، الجمعية الموسيقية الملكية، 1985.

(55): أ. بون جيمس، من الرمزية إلى البنيوية. ليقي - شتراوس في التقليد الأدبي، أوكسفورد، بازيل بلاكويل، 1972.

(56): جان فرانسوا سيرنيللي، الجيل الفكري، طالب في الهيبيوكان وإعدادي بين الحريين. باريس، فافار، 1988، ص (390-391).

(57): ستيفان كلويه. الثورة البناءة، مجموعة مثقفين اشتراكيين في سنوات الثلاثينات، أطروحة مقدمة في 3 شباط / فبراير 1989، جامعة نانسي - II. الجزء الثاني ص (39-40).

(58): جان فرانسوا - سيرنيللي، المثقفون والأهواء الفرنسية. باريس، فاريار، 1990، ص (199).

(59): فيري لوك، الإكسبريس، 26 آب / أوت 1988. ص (94-96) وآلان فينكيليراوت. في الفيغارو الأدبي، 20 أيلول / سبتمبر 1988 ص (3).

- (60): الإنثروبولوجيا البنيوية، مرجع مذكور، ص(366-368).
- (61): تزفيتان تودوروف. نحن والآخرين، باريس، لوسوي، 1989
وباسكال بروكز، محلاً هذا الكتاب في النوفيل أوبسيفاتوار، 12
كانون الثاني / يناير 1989، ص(88).
- (62): النظرة البعيدة، مرجع مذكور، ص(44).
- (63): الإنثروبولوجيا البنيوية، الجزء الثاني، مرجع مذكور،
ص(328).

المحتوى

7	تمهيد
9	القسم الأول: عندما يعود دونكيشوت
11	الفصل الأول: من أوفنباخ إلى ماركس
37	الفصل الثاني: الإثنولوجي في الميدان
49	الفصل الثالث: البوهيمية في نيويورك
83	الفصل الرابع: العودة إلى العالم القديم
101	الفصل الخامس: أسرار الرقم 8
117	الفصل السادس: البنيوية في باريس
127	الفصل السابع: في الكوليج دوفرانس
137	الفصل الثامن: البذلة الخضراء
149	الفصل التاسع: «لا يشعر المرء بمرور الوقت»
307	

159 القسم الثاني: قوانين العقل
161 الفصل العاشر: قواعد الزواج
177 الفصل الحادي عشر: الكيفيات المحسوسة
187 الفصل الثاني عشر: السيو، الفلاسفة والعلم
193 الفصل الثالث عشر: في سلة مهملات التاريخ
203 الفصل الرابع عشر: تتبع مخرب أعشاش العصافير....
221 الفصل الخامس عشر: عمل الفكر
227 القسم الثالث: الثقافة، الثقافات
229 الفصل السادس عشر: العرق والسياسة
257 الفصل السابع عشر: الأدب
265 الفصل الثامن عشر: محتوى الرسم
273 الفصل التاسع عشر: الموسيقى والأصوات
281 خاتمة
283 بعد سنتين
299 الهوامش

أعمال كلود ليفي - شتراوس

- 1- الحياة العائلية والاجتماعية للهنود النامبيكوارا، باريس، مجمع الأمريكويين، 1948.
- 2- البنى الأولية للقراية، باريس، puf، 1949. طبعة جديدة منقحة، لاهاي - باريس، موتون & سي، 1967.
- 3- العرق والتاريخ، باريس، يونيسكو، 1952.
- 4- المدارات الحزينة، باريس، مكتبة بلون، 1955.
- 5- الإنثروبولوجيا البنيوية، باريس، مكتبة بلون، 1958.
- 6- الطوطمية اليوم، باريس، puf، 1962.
- 7- الفكر البدائي، باريس، مكتبة بلون، 1962.
- 8- أسطوريات:
- 1- النية والمطبوخ، 1964.
- 2- من العسل إلى الرماد، 1967.

- 3- أصل آداب المائدة، 1968.
- 4- الإنسان العاري، باريس، مكتبة بلون، 1971.
- 9- الأنثروبولوجيا البنيوية - الجزء الثاني، باريس، مكتبة بلون، 1973.
- 10- طريق الأقنعة، جنيف، منشورات ألبير سكير، طبعة مزيّدة ومنقّحة وموسّعة، باريس، بلون، 1979.
- 11- النظرة البعيدة، باريس، بلون، 1983.
- 12- الوعود، باريس، بلون، 1984.
- 13- الخزافة الغيور، باريس، بلون، 1985.
- 14- تاريخ لانكس، باريس، بلون، 1991.
- 15- المشاهدة، السمع، القراءة، باريس، بلون، 1993.
- 16- Saudades do Brasil، باريس، بلون، 1994.

كتب مشتركة

- 1- جورج شاربونييه، لقاء مع كلود ليفي - شتراوس، باريس، بلون - جوليارد، 1961.
- 2- خطاب استقبال آلان بيريفيت، في الأكاديمية الفرنسية وردّ كلود ليفي - شتراوس، باريس، غاليمار، 1977.
- 3- خطاب استقبال جورج دوميزيل، في الأكاديمية الفرنسية وردّ كلود ليفي - شتراوس، باريس، غاليمار، 1979.

الدوائر الباردة

الدوائر الباردة

لطالما انشغل كلود ليثي شتراوس بهاجس البحث عن العمق. فهو لم يكف يوماً عن القناعة بأن ما هو مرئي يخفي واقعاً آخر أكثر عمقاً، وأن هدف العلم هو أن يسبر هذا العمق حيث تختفي الحقيقة، أو القانون الأساسي، أو البنية. وباختصار، فقد كان طموح بنيوية شتراوس أن تزيح الستار عن خصائص العقل الكونية اللاواعية. فمنذ تأثره بالألسنية التي تعلمها، والتي انتهت به ليكون أحد أعمدة البنيوية، راح يحدوه حلم الصرامة العلمية، وحاول أن ينقل كل ذلك إلى ميادين الأنثروبولوجيا، والأسطورة، والفكر البري، والطوطمية، وأنظمة التواصل والتبادل، والتاريخ، والموسيقى، والأدب.. وباختصار، إلى معظم الميادين التي تناولها الأنثروبولوجيا ومعظم ما يندرج في إطار التمثيلات الذهنية والثقافية، كل ذلك بمنهج بنيوي ربما لم يمثله أي أحد آخر من القامات البنيوية الرفيعة كما مثله شتراوس.

إذا كان ثمة مئات من الكتب والدراسات التي تناولت أعمال شتراوس ومنهجه وعوالمه الشاسعة، فلربما كان أفضل من يتحدث عن كل ذلك هو شتراوس نفسه، وهذا الحديث المسهب بالضرورة، والكاشف، والعميق، هو هذا الكتاب.

علي مولا

عالم من قريب ومن بعيد الدوائر الباردة

فلسفة 7

S.P300



1 1 2 7 6 5

عالم المعرفة

دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية

